

قيم ومعايير في أدب يوسف إدريس

❖ العيب.

❖ الحرام.

❖ العسكري الأسود.

❖ رجال وهران.

❖ بوبوك ٨٠.

اعداد
محمود القليني

دار العلم و الإيمان للنشر و التوزيع

قيم ومعايير في أدب يوسف إدريس / محمود القليني . - ط ١ . - دسوق :

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع .

200 ص : ١٧,٥ × ٢٤,٥ سم .

تدمك : 3 - 478 - 308 - 977 - 978

١ . الادب العربي - تاريخ ونقد . ٢ . الأدباء المصريون .

٣ . يوسف إدريس . يوسف إدريس علي . ١٩٢٧ - ١٩٩١ .

١ - العنوان .

رقم الإيداع : ٢٥٦٦١ .

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع السركانت - ميدان المحطة

هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣ : ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٠١ - فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٠١ .

E-mail: elem_aleman@yahoo.com

elem_aleman@hotmail.com

حمون الطبع والتوزيع محفوظة

تحديد:

يحلل الشر او النسخ او التصوير او الاقتباس بأي شكل

من الاشكال الا باذن وموافقة حطية من الناشر

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧	١- المقدمة .
١٧	٢- توطنة .
٢١	الفصل الأول: العيب :
٢٢	• الانفصام الخلقي .
٢٥	• السقوط .
٥٠	• إعادة التشكيل .
٢٨	• الصراع .
٥٥	الفصل الثاني : الحرام :
٦٢	• المحرر الأول: موقف أهل التفتيش من الحرام .
٦٦	• المحرر الثاني : واقع " عزيزة " .
٧٦	• المحرر الثالث : موقف أهل التفتيش من الغرابوة بصفة عامة ومن " عزيزة " بصفة خاصة .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٨٣	التصل الثالث : العسكري الأسود :
٦٥	• سحق الأدمية .
٩١	• تحريب الإنسان .
٩٦	• سيكلوجية المُعذِّب .
٩٩	• لقاء الثأر .
١٠٤	• الصدع .
١٠٧	الفصل الرابع : رجال وهران :
١٠٩	• مسيرة الإنسانية وصراع القوة .
١١٣	• نظامية الحياة .
١١٤	• دور الجمهور في الحفاظ على القيم .
١١٧	• يونوبيا الأريتنا .
١٢١	• سن الخطوة .
١٢٢	• فردية الخطوة .
١٢٥	• تورية المصارع .
١٢٦	• المركز والمحيط وحرية الإنسان .
١٢٨	• قدرة المصير .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
١٣٣	الفصل الخامس : نيويرك (٨٠) :
١٣٥	٠ صدام حضاري .
١٣٨	٠ الإنسان .
١٤٣	٠ المال .
١٤٤	٠ الوجود الداعر .
١٤٧	٠ القيم .

obeikandi.com

المقدمة

للأديب دور قيادي في مجتمعه . فهو الشخص الذي يرصد بكل دقة حركة مجتمعه إلى الأمام أو إلى الخلف ، وأيضاً حركة الأفراد وهم يدورون في فلك مجتمعه . ويسجل ما يؤثر على حركتهم تلك ، سواء الوقوف ضد حركة المجتمع أو الإسراع به . وموقعهم منه ، أهم يقتربون ليندمجوا فيه . أو يبتعدوا باحثين عن مركز آخر يدورون في فلكه . بعدما لم تتوافق حركتهم وفلكهم القديم .

ولا يقتصر دوره على المشاهدة والرصد فحسب . بل يمتد ليسهم في دفع حركة مجتمعه إلى الأمام ، ودق أجراس الخطر ، إذا ما توقفت عجلة المجتمع عن السير والتقدم . أو نكصت على أعقابها ، ويعمل على إعادة التوازن والتوافق بين حركة الأفراد ومجتمعهم إذا ألم بها اختلال أو تعارض " وإذا فهم الكاتب وضعه الحقيقي في المجتمع وأدرك مسؤوليته الكاملة ، ونهض بالدور القيادي الحر الذي يعزز مكانته ويرتفع بها إلى مستوى الإيجابية الفعالة ، فإنه لابد مستجيب لحاجات عصره وقيم مجتمعه بطريقة تلقائية " (١) .

والأدب الواقعي شاخص إلى تلك المهمة ليؤديها على أكمل وجه . فلا يقتصر دور على مجرد التسجيل أو النقل عن الواقع وإن اكتفى بالنقل - كبعض المدارس التي تلبست ثوب الواقعية ، والواقعية منها براء - فهو لا يعدو عن كونه أكاديمية لا رصيد لها من الحق والصدق . " إن الأدب الواقعي ليس عقيدة جيل من الأجيال . أو قرن من القرون ولكنه سجل التطور الإنساني أجمع ، وهو لا يجمد على

١- بي الرومانسية والواقعية - د . سيد حامد النساج - صفحة (١٠٨) .

حال ولكنه يساير التقدم الاجتماعي ... وعلى ذلك فإنه لم يعد يقتصر اليوم كما كان مقتصرًا في القرن الماضي على التعبير عن الواقع الطاهر تعبيرًا صادقًا. ولكنه أخذ يعبر عن الواقع مشتملاً على الصراع بين الفكرتين المتناقضتين أو العقيدتين المتناقضتين. وتسجيل انتصار الجديد النامي فيها على القديم الناكس على أعقابه... فالأدب الواقعي لا يحاول اليوم أن يصور الواقع تصويراً ألياً ولكنه يرمي إلى خوض غمار الواقع والمساهمة مساهمة إيجابية في دفع التطور إلى الإمام والعمل بذلك على تقدم الإنسانية" (١).

فلم يعد الأدب نوعاً من الترف، أو نباتاً ينمو على هامش الحياة، متسلقاً على الحدران الخارجية للمجتمع، وإنما هو شيء جوهري وأساسي، بل هو ركن من الأركان العتيدة للمجتمع، يأخذ كيانه وقوامه من الواقع ليعود إليه. ويهدف إلى تغييره إلى الأفضل. ودفع المجتمع إلى الأمام. "والأدب ليس مجرد صورة مأخوذة من الحياة وإنما هو تعبير أكثر الناس إدراكاً له تعبيراً يهدف إلى تغيير المجتمع الذي لا يمكن أن يتغير إلا بتغيير هذه الحياة" (٢).

والواقعية روحاً حتمية للمسكلات التي تجاهد المجتمع، وهي إزاء تلك المسكلات تأخذ طريقين:

الأول: حل المشكلة، أو البحث عن حل للأزمة الحضارية التي يمر بها مجتمعها.

١- الأديب المصري - عدد أبريل - ١٩٥٠ - صفحة (١٩٣) - مقال (الكاتب المستطير) محمد مفيد انشوتشي - نقلاً عن كتاب الرومانسية والواقعية - د. ر. سيد حامد انشاح - صفحة (١٦٨) .
٢- في الرومانسية والواقعية - صفحة (٣٠) .

الثاني : وإن لم يستطع الحل أو البحث ، فيكفي أن يظهر المشكلة إلى حيز الوجود الإدراكي ، يكفي أن يضع الأديب يده على المشكلة ، فيكون هذا الفعل نوعاً من التغيير ، فالأديب الواقعي أشد ولاء للمجتمع ومشكلاته فهي شغله الشاغل " فالواقعية تعني الولاء للحياة الإنسانية بعرض مشاكل هذه الحياة عرضاً سليماً يريد الكاتب من ورائه حلاً سليماً لهذه المشاكل " (١) .

ويعمد الأديب الواقعي إلى تلك المراكز العليا المؤثرة على المجتمع وأفراده وليس هناك إلا القيم التي تمثل المراكز العليا ، لأنه إذا غيرها فقد غير المجتمع وشكل أفراده من جديد ، وأعاد صياغتهم صياغة أصيلة . " فإذا أنت غيرت ما لدى القوم من معايير وقيم تغير لهم بالتالي وجه الحياة بأسرها " (٢) .

وليس هناك مثل الأدب ليقوم بهذا الدور ، لأنه ينسل إلى النفس الإنسانية خفية . وقد استبطن أهدافه ؛ ليزرعها ضمير الإنسان ، وإذا جارلما أن نعر مقلته : (الشعوب على دين ملوكهم) إلى (الشعوب على دين أدبائهم وكتابهم) نكون قد أصننا في هذا المقام ، ذلك لأن " الشعر والأدب بصفة عامة هو الذي يسن للناس خلال ويرسم أمامهم الطريق ولا ينتظر ليملي عليه الناس بأي الخلال يشيد وأي طريق يرسم ، فهو إذن ضلال وتضليل أن يدعو الداعون إلى أن تكون مهمة الأديب تصوير الواقع كما يقع ، لأن هذا الواقع لن تزيد واقعيته درة واحدة إذا وصفها الواصفون بألف قصة وألف ديوان ، أما الدعوة الصحيحة فهي أن يلتمس

١- في الرومانسية والواقعية - (١٠٨) .
٢- تشيكوف والقصة القصيرة - شكر النافلي - صفحة (٣٠) .

الأدباء قيما جديدة وهم يحسون قبل سواهم ضرورتها لحياتنا فينبعثون بها شعرا
أو يرسمونها في قصصهم حياة منظورة مسموعة (١).

فهو دور خطير لا ينهض به إلا أولو القوة من الأدباء ، فهو يحس نبض
مجتمعه ، ويستجيب لتطلعات هذا المجتمع من قيم ومعايير .

وليس موقف الأديب هذا بالموقف الجامد الذي لا يتغير ولا يتبدل ، فعليه أن
يعمل بمرونة كافية ، وليس عليه أن ييمم شطر الأمس فقط ، ليستلهم منه القيم
والمعايير ، بل عليه أن يستلهم اليوم وغدا أيضا ، وعليه أن يوائم بين ما بيده من قيم
وحاجة المجتمع لها ، فإن لم يعد للمجتمع حاجة لمعايير المس فعليه أن يبحث عن
قيم جديدة ، يكون المجتمع اليوم وغدا في مسيس الحاجة إليها " إن الحياة إذا كان
تيارها متدفقا متحدا فلا تكون مقاييس غدها هي مقاييس يومها ، والأديب إذا
أراد لنفسه مكان الريادة والقيادة في حياة كهذه ، اتجهت دعوته إلى ضرورات الغد
وقيمه ومعاييره " (٢) .

وقد أدرك يوسف إدريس هذا الدور إدراكا حقيقيا ، فأتى نتاجه الروائي
ترجمة لنادي الواقعية ، ودار حوار محاور القيم والمعايير ، لأنه يعلم أنها العصب
الحي للمجتمع ، وأن بقاء المجتمع واستمراره مناط ببقاء القيم ودوامها .

ففي روايته (العيب) تشریح دقيق للإنسان ويرصد لكل خلجة من خلجاته
حينما يقسو الواقع عليه ليدفعه إلى قبول الرشوة ، وينشأ الصراع الحاد بين ضمير
الإنسان النقي وواقعه العاسد ، ولكي يخرج الإنسان نفسه من هذا الصراع يدحل -

١- في حياتنا العقلية - د . ركي بحيب محمود - صفحة (٧٤) .

٢- فلسفة النقد - د . زكي بحيب محمود - صفحة (٩٧) .

إراديا - في منطقة الانفصام الخلقى . فيقبل الرشوة . ويستخدم أسلوب التبرير ليدحض به القيمة التي تمنعه من قبول الرشوة . كما فعل الباش كاتب مع (سنا) (لىبرى ساحتها أمامها ، ويحاول أن يقنعها بالاشتراك معه .

والرواية رحلة مع الإنسان حينما يتخلى عن قيمه ومبادئه شيئا فشيئا ثم تتغير نظرتة وفلسفته للأمور . بعد أن يصطدم بلا عقلانية مع تناقضات الحياة ويدخل في صراع مع شخصيات منحرفة . أول ما تهدف إليه هو أن تجرف من تراه يناقضا في سيرتها غير السوية .

والشخص المتمسك بقيمه بمثابة دليل دامغ أمام تلك الفئة المنحرفة ، فهو ضئيرهم الحي الذي يقض مضجعهم . فيسعون سعيا للتخلص منه . فيجذبونه ليهوي إلى القاع حيث يعيشون . وهذا ما فعلته جماعة المكتب التي تبيع التصارع وعلى رأسهم (محمد الجندي) .

وتلمع من خلال أحداث الرواية إيمان يوسف إدريس بالإنسان . فهو طاهر نقي من داخله ، وما يدفعه إلى الخروج عن الطهر والنقاء كلها دوافع خارجية تجبره أن يسلك ذلك الطريق ، ولا تترك له الخيار ، ومع ذلك تجد بقية من الطهر والنقاء أو ترى الجوهر هنالك ما يزال يتحدى الواقع العاسد .

وفي (الحرام) يبين يوسف إدريس أن القيم عماد تلك الجماعة من الناس التي لا تظن بوجود الحرام ، وحتى وإن وجد فهي لا تصدقه ، ووجوده ذات صااح بينهم متمثلا في ذلك الطفل المقتول تحت شجرة الجميز على حافة الخليج

هو بمثابة صدع لذلك الجدار القيمي . ولا يوجد شيء يقلب هذا المجتمع رأساً على عقب إلا هذا الصدع .

ويستغل يوسف إدريس هذا الحدث أفضل استغلال في إلقاء الضوء على فئة من الناس تعاني الأمرين في سبيل الحصول على الشظف من العيش وهي فئة الترحيلة أو الغرابوة . ويستخدم (وجهة النظر) ليوضح موقف أهل التفتيش من الغرابوة . ومن (عزيزة) أم الطفل الحرام . هذا الموقف - الذي كان يقعه أهل التفتيش - كان يشوبه العدا والاشمئزاز والتناعد في البداية . ولكن بعد ذلك حينما عرفوا بالطروف التي مرت بها (عزيزة) وحكاية الروح المريض والأولاد وجزر الدلائل . بدأ التغيير في موقف أهل التفتيش من الغرابوة وعزيزة . فحل الود محل العدا . والإقبال محل الاشمئزاز . والقرب محل التناعد . والتحممت الفتتان التحاماً رائعاً في نهاية الرواية . بعد موت (عزيزة) . كما ظهر في موقف العزاء الذي صورده يوسف إدريس فأبدع تصويره . غير غافل عن أدق المشاعر الإنسانية التي يحليها الموقف .

ويعرض كذلك نموذجاً للنفس الحلى والمنقلة بالدينب والإثم . وهي نفس (عزيزة) فبالرغم من أن حملها كان سفاحاً وقامت بقتله . إلا أن هذا لم يخرجها عن كونه إنساناً . امتزج بلحمها ودمها وأخذ منها الكثير . وعرضها (إدريس) لبيض من الإدراك الواعي المحصر لوجودها المسمم بالدينب . فقد كانت تستطيع أن تمنع حدوث ما حدث . ولكنها لم تعارض ولم تقاوم . فأى شيء عارضته وقاومته في واقعها كله ووجودها حتى تعارض وتقاوم اعتداء (محمد بن قمرين) عليها ؟!

وسعت (عزيزة) لتدمير ذاتها تكفيرا عن ذنبها ، لجأ القاص إلى عملية الولادة الثانية التي قامت بها (عزيزة) ليحملها رمزا أعمق وبعثا أشمل ، لتتخلص من الذنب والإثم ، ومن وجودها ، وذهبت إلى نفس المكان الذي ولدت فيه الطفل وتقمصت مشاعر وحركات الولادة ، وأهل التفتيش والغرابوة يحيطون بها في عز الظهر ، وتموت عزيزة أو تقتل وتدمر وجودها تكفيرا وتطهيرا لتلقي الضوء على أسوأ واقع عاشه ويعيشه الإنسان .

وفي (العسكري الأسود) يعرض (إدريس) صورة للإنسان المحطم المُخرب الذي انقلب إلى كائن آخر لا تربطه أي صلة بالجنس الإنساني ، كائن متقلص يهرب من الوجود ، منسحب على نفسه ، الهدف الذي يعيش من أجله هو الهروب من كل الوجود ، والذي حول الإنسان إلى هذا المسح هو السجن والتعذيب ، وذلك من خلال عرضه لشخصية (شوقي) الطبيب الشاب الثائر الذي يهدف إلى مصلحة بلده ، ولكن حينما يُقبض عليه ويُسجن ويُعذب ن ينقلب إلى الكائن سالف الذكر ، ورُمز إلى سوط العذاب والقوة العاشمة التي تهزم الإنسانية وتسحق البشرية بالعسكري الأسود (عباس محمود الزنقلي) والذي ذاع صيته في ذلك الوقت بتعذيب السياسيين وخصوم الحكومة . ويفيض (إدريس) في شرح المراحل التي يمر بها الشخص الذي يقع عليه التعذيب وأثر التعذيب عليه في (سيكولوجية المُعذب) .

وينتقل إلى أثر التعذيب في المُعذب ، فمثلما يدمر ويخرب العذاب المُعذب كذلك يدمر ويخرب العذاب المُعذب (سيكولوجية المُعذب) .

وهذا ما توصل إليه وأدركه (شوقي) ، حينما كُلف بالذهاب إلى (عباس) للكشف عليه ، وأدرك بجلاء هذا القانون الأزلي ، أنه حينما يظلم الإنسان الآخرين ، يكون في نفس الوقت ظالماً لنفسه .

أما في (رجال وثيران) فهي تحمل أكثر من مدلول ، فهي صراع القوة متمثلة في الثور ضد العقل متمثل في المصارع ، هذا الصراع يلخص صراع الإنسانية خلال مراحلها الطويلة ، ولم يكن هناك من سلاح مع الإنسان أمام تلك القوى الطبيعية حوله إلا العقل ، واستطاع به أن يقف أمام القوة بل وينتصر عليها ، هذا العقل يعطي له الكثير من حرية الحركة ، بمرونة مطلقة في هذا الكون الفسيح ، ثم يلقي الضوء على فئة المصارعين ، ويتخذ مصارعا ليعقد بينه علاقة صداقة ، منشأها أن هذا المصارع يحمل قدره فوق يديه ، وفي أي لحظة قد تكون نهايته ، ويبحث في تلك الدوافع التي تدفعه لبيع وجوده ن تلك الدوافع ناتجة عن الواقع غير المتوافق مع الإنسان ومع وجوده الإنساني .

وفي (نيويورك ٨٠) عرض لفكرة الحضارة الغربية ، ونقائص تلك الحضارة أثناء لقاء القاص مع معالجة نفسية أو بعني ، تمثل إنسان تلك الحضارة ، التي تحكمه حضارة القرن العشرين هنالك ، وسلي عليها قيمها ومعاييرها ، التي يتصرف ويفكر بمقتضاها ، وتصدر تلك الحضارة عن الفلسفة الرأئعية أو البرحمانية ، التي تحدد القيمة على أساس العائد المادي ، فأي فعل مهما كان فاضلا لا يعد كذلك إذا لم يكن له أثر مادي ملموس ، ويحاول أن يمثل القاص حصارته بكل قيمها ومعاييرها ، ويخرج بالعارق بين الحضارتين ، وهو القيمة الإنسانية .

ويعري القاص المجتمع الأمريكي موضحاً أنه رغم التقدم التكنولوجي في جميع الأنشطة الإنسانية ، لم يوازيه تطور ورقى للقيم والمعايير ، بل ظلت كما كانت في العصور المتخلفة ، بل نظرت المعالجة النفسية إلى قيم ومعايير حضارة القاص على أنها قيود وعراقيل تعوق حركة الإنسان عن اللحاق بركب التقدم الإنساني .

وتلك الحضارة المادية لا تدفع الإنسان بيريقيها الزائف ، فالحكم على رقي أي حضارة لا يتحقق إذا لم تحقق الرضي والإشباع للجسد والروح ، وإن الاكتفاء بجانب واحد لا ينهض ليقوم دليلاً على رقي تلك الحضارة ، ويدور الحوار سحالا بين القاص و (بامبلا جراهام) لتسحب في النهاية غاضبة تنقد غيظاً بعدما عرى لها وفضح وجودها الداعر ، وحياتها التي لا تزن حياة الحيوانات في ميزان الحضارة الإنسانية .

obeikandi.com

توطئة

هناك مدارس ونظريات كثيرة في النقد . استمدت وجودها وخصائصها وملامحها من النص الأدبي ، وكان النص الأدبي كالأرض التي تمد كل زرع حسب غذائه وما يتطلبه وجوده من ماء وهواء ، ويجد فيها كل نبت ما يمكن له أن يستغلظ ويستوي على سوق هو يبسر له استمرارية البقاء .

وإذا كانت تلك النظريات والمدارس تدين للنص الأدبي في منشأها وبقائها إلا أن بعض المدارس ابتعدت كثيرًا عن النص ولم يعد هناك إلا وشائج واهنة تربطها بالنص والبعض الآخر أصبح منبت الصلة بالنص ، واستقل بوجوده عنه وجاء نتاج تلك النظريات بعيدًا عن مدلولات ومقاصد العمل الأدبي ، وكل ما كانت تقدمه للنص هو نوع من التغريب له ، والرؤية التي كانت تقدمها متفحشية بكثير من الضباب التي تمنع القارئ من الرؤية الصادقة الواضحة للنص ، وتستعين تلك المدارس بأخر ما توصل إليه العقل البشري في مختلف العلوم النظرية من علم نفس واجتماع ولغة ... إلخ ، في استكشاف مسارب العمل الفني ، وتطوع - بنوع من التعسف - النص الأدبي ليتوافق وتلك العلوم ، ناسين أنهم بعملهم هذا يسلبون أحمل ما في الأدب ، وأنه أشمل وأرحب من أن تُحد مقاصده ومعانيه بما تخرج به علينا تلك العلوم من تفسير وشرح ، فحينما يكتب الأديب يستمد مددًا من هذا الرصيد التي تزخر به النفس الإنسانية ، من مشاعر وأحاسيس ، وتلك تتأبى أن تسلس قيادها لعالم نفس أو اجتماع أو لغة ، لأن كل أولئك سيحولونها إلى رموز

ومصطلحات نظرياتهم القاصرة أن نعي رحابة وشمولية النص الأدبي ، ولسنا بهذا القول نعارض استعانة الناقد بنتائج تلك العلوم لدراسة النص وفك بعض رموزها وإذا كان باستخدامه ما تقدمه تلك العلوم يبتعد عن النص ، وإن لم يزد هدا الابتعاد اقترابا من شمولية الرؤية وسعة أفق الفهم للنص موضوع الدراسة ، فهو ليس بالناقد الأدبي ن وما استخدمه من وسائل وأساليب لم يزد عن كونه ببعض الأحاجي والفوازير ، فنحن ضد إخراج العمل الأدبي عن فلكه الذي يدور حوله ولا نرده إلا إلى مصدره ومنبعه النقي ، وهو النفس الإنسانية ، وما تملبه تلك النفس من منطلق يحكم تصرفاتها واستجاباتها إزاء جزئيات الوجود المعاش ، هذا المنطق نستلهمه أو معنى أدق نستنتجه بعد استقراء شامل للنص بأدق خلاياه ن بدون أن يصرفنا هذا عن مثل صورته الكلية وأطره العامة التي توضح ملامحه ، بهذا المنطق الذي يفيض عنه العمل الفني كما يفيض الشعاع المشرق الكاشف من الشمس ، وهو النواة التي تنتظم خلايا العمل الأدبي في فلكه .

وتعاملنا مع النص كتعامل رحالة يدخل مدينة محبولة . يدخلها لأول مرة يسير مستقصيا مستكشفا مستمتعا . يترك قدميه لطرق وسبل المدينة ، ليسلمه طريق إلى عطلة إلى زقاق . واضعا يده على عروق الحياة مسترشداً بأنفاس وحركة وعروق وضوء وصرع وجرارك الأحياء .

فالنقد ليس نسج شرنقة بخيوط من حرير حول العمل المنقود ، لعوله عن حوله ، أو وضعه في قوقعة المصطلحات والرموز التي تصنع أرستقراطية فكرية النقد الحق ليس بهذا العسر ، وإنما هو نوع من القراءة ، ولكن في أعلى درجات

الوعي الإدراكي لفهم العمل المنقود ، إنه إزالة كل الحجب والحواجز بين القارئ -
أي قارئٍ ييتم شطر الفهم الصحيح - والنص الأدبي ، وليس تحويله إلى أُلغاز ورموز
وأحجية ومصطلحات تضع غشاوة كثيفة على العمل الأدبي ، وإن لم يزد النقد من
اتساع مساحة القراء فهو نوع من النقد المفلس .

obeikandi.com

الفصل الأول

العييب

- ١- الانقسام الخلقى .
- ٢- السقوط .
- ٣- إعادة التشكيل .
- ٤- الصراع .

obeikandi.com

انطلاقاً من تجريم السلوك الخطأ . ليس لأنه خرقاً لقانون وضعه المجتمع ليعاقب كل من تسول له نفسه تجاوز ما حدده ، ولكن لأن هذا السلوك خطأ في حد ذاته . ينبغي على الإنسان تجنبه بغض النظر عن الإضرار التي قد تلحق به أو العقوبات التي قد تنزل به . وضع القاص هذا العنوان لروايته .

فقد يستطيع الإنسان أن يغافل المجتمع ، وأن يرتكب ما يشاء . وقد يستطيع - وقد أوتي قدر من الذكاء - أن ينسل من بين فقرات القانون ولا يقع تحت طائلة العقاب ، وهنا يكون المبرر موجوداً لارتكاب ما يخالف القانون .

ولكن اليس هناك رادع يردع الإنسان غير القانون ؟

ألا يمتنع الإنسان عن الجرم إلا إذا كان هناك عقاب رادع له ؟

الأمر مع الإنسان ليس ارتباطاً شرطياً كحيوان (بافلوف) ، لا يفعل الشر لأن هناك عقاب ، أو يفعل الخير لأن هناك ثواب ، ليس الإنسان - أرقى المخلوقات - مثل الحيوان الأعجم ، ذلك لأن في داخله محكمة كاملة ... تجرم وتدين وتحكم ونقد . تلك المحكمة هي الضمير الحي للإنسان والذي يستلهمه الفرد في معرفة الغيب ... وما ليس بغيب .

١- الانفصام الخلفي :

مصطلح (سنا) بالواقع الفاسد محاطاً بها ، يريد بتياره الجارف أن يتلعبها لتكون من ضمن العرقى ، وتقف على شط هذا الواقع حائرة ، منكبة :

فأما أن حياتها بكل ما حوت لا تساوى شيئاً إزاء هذا الواقع الجديد عليها

في المصلحة التي تعمل بها ؟

أو أن حياتها هي الحياة الحقّة . وواقع المصلحة واقع شاذ منحرف ليس
بينه وبين العالم الذي نشأت فيه من قبل أي صلة ؟

وليس المشكل هنا . فنحن لا نعجب إن صادفنا فساداً . فالأشياء تدرك
بنقائضها . ووجود الفساد في مكان ما لا يعد شيئاً مستغرباً . طالما هناك معادل
موضوعي لإنكار هذا الفساد لدى الإنسان . وهذا نوع من الرفض السلبي للواقع
المتخّم بالفساد (فإن لم يستطع فقلبه وهو أضعف الإيمان) . وإنما المشكل أن
يوجد الفساد والانحراف ويوجد ما يبرره ويعطي له نوعاً من المعقولية التي تضي
عليه غلالة رقيقة من الشرعية . حينئذ يلتبس الحق بالباطل . ويدلّم الإنسان بين
شعاب الخطأ والصواب .

وأن يتطرق الفساد إلى فروع الشجرة . هذا لبس بشيء . فقد تصح تلك الأفرع
بعد حين . أو تستر ويخرج غيرها صالحاً من غير سوء . أما أن يزحف الفساد
إلى العمق . إلى الجذر . فهذا هو الفساد الأكبر . الذي لبس صلاحاً بعده . ويوم
يقتنع الإنسان أو يقنع غيره بسلوك منحرف لهو أكبر دليل على فساد الإنسان
وعلى ما يحيط به من واقع فاسد كان له نصيب أو وافر في إحضاره على سلوك ذلك
المسلك .

فحينما رفضت (سناء) الاشتراك مع جماعة المكتب التي تبيع التصاريح
حاول الناشكاتب أن يبصر (سناء) ويفل أن بدأ معها . صفحة 1 (79)

” سألها صفوت أفندي الناشكاتب أول ما سألها عن رأيها فيه . أوسىء؟ أي
ملامحه أو تصرفاته ما يوحى بالجريمة والإجرام ؟

أجابت (سناء) بالنفي ، فالباشكاتب قد بدا لنا طوال عملها معه وخوفه من الله والحساب والميزان لا يقل عن خوف عالم متحرف في الدين ، ما الذي يدفع رجلا هذا شأنه إذن إلى أن يكون شريكا في عمل قدر تأباه النفوس ؟ "

سؤال قديم قدم الخطيئة ، ما الذي يدفع الإنسان إلى الخطأ...أهو طبع الإنسان ؟

أم الواقع المسلط على رقبته ؟

وإذا كان الواقع فأين إرادة الإنسان ؟

يقول (صفوت أفندي) مبرراً ما يفعله هو والآخرون : " الدنيا يا سناء يا بنتي ، العيشة ... أنا ماهيتي كلها بعد الخصومات ١٩ جنيهه و٢٣ ملبما ومصاريف بيتي ما تقلش عن ٥٠ أو ستين ن عندي ولدين في الجامعة ، وبنيتين وولد في النانوية ، وبنيت في المعهد وعيلين في إبتدائي ، ولي اخت مطلقة وقاعدة معا هي وأولادها ثلاثة ن منهم واحد طلعهنا من المدارس وبيشتغل عامل في مصنع ... ساكن في بيت الناس بيحسدونا عليه . ومع كده إيجاره ثمانية جنيهه ويبقى بند الأدوية ن بس بيأخذ منا بالبيت جنيهه في الشهر غير الدكاترة ، لو في مكاني تعملي إيه ؟) .

إذن هي قسوة الواقع على الإنسان ، يدفعه إلى ارتكاب ما يرتكبه ، ويعري الإنسان نفسه بأنه يفعل هذا ليس لحاجة في نفسه ، وإنما لأجل غيره ، فهو مضطر ويأتي رد (سناء) على هذا التبرير بقولها : " اعمل أي حاجة لإكده ، أعلم ولادي بفلوس حرام ؟ أطلعنهم من المدارس أحسن وأشغلهم .

فهقه الباش كاتب بسخرية مريرة ربما لسذاجة الاقتراح :

- لورضيت أنا أمهم ح ترضى . ولورضيت أنا وأمهم ح يرضوا هم ؟
ولو اشتغلوا حتى ح يشتغلوا إيه ؟ ح يكسبوا إيه ؟ "

فالشخصية هنا محاطة بأكثر من جهة تدفعه وتحضه . وهو لا يملك إلا أن يسير في ذلك الطريق ، وكل ما يفعله نوعا من التبريرية الزائفة .

أيمكن أن يزحف الفساد إلى جوهره . إلى قلبه . فيقتنع به اقتناعًا كاملاً ؟

هنا يحدث الانفصام الخلفي . أن ينقسم الواحد إلى اثنين . فرد يرتكب ما يرتكبه . والآخر يعارضه معارضة كاملة ، وبهذا يحدث التراضي والتعادل السلمي بين الإنسان وبين واقعه ، وإذا ما سألت كيف يكون هذا الإنسان فردًا واحدًا . فأما أن يكون الإنسان مفسدًا أو مصلحًا . كان جوابه المثل اللذيذ الذائع :
(دي نقرة ودي نقرة) .

وقد يكون هذا الانفصام انتصارا من الإنسان النقي على واقعه القدر أو تحدي نظري للفساد أن يتطرق إلى جوهره فيدنسه . فالإيمان والأخلاق والقيم موحودة ولكن ليس لها أي أثر عملي . فهي كالكتب المرصوفة على أرفف المكتبة محرد أسماء دللما لم تمتد إليها اليد . فالواقع بقمامته يمنع تلك القيم أن يكون لها أثر في محيط الإنسان . وهو لا يعترف إلاً اعترافا نظريا فقط . وذلك نوع من التوافق الإنساني مع واقعه . ولكنه توافق قائم على التعارض الصارح ، نتج عنه نفع في كل شيء ، فالواقع عاسد ، والأخلاق والقيم موجودة ، ولكن لم نقم بدورها في إصلاح الواقع . وهذا من شأنه أن يضفي غشاوة من عدم الاهتمام واللامبالاة بالقيم

ويستبدل بالقيمة أشياء أخرى من أهمها المال ، فلا قيمة للعلم ، ولا للأدب ولا للأمانة ولا للإخلاص ، القيمة الوحيدة هي المال .

فالتاجر لا يرى غضاضة أن يخرج من المسجد بعد أن أدى فريضة الصلاة لربه ، لا يجد غضاضة أن يغش فيما يبيعه ، فالصلاة شيء والتجارة والربح الوفير شيء آخر ، فإيمان هذا التاجر لم يتعد القول أو الفعل الأجوف إلى الفعل الإيجابي وهذا ما اكتشفه نساء المصلحة و (سناء) حينما ذهبن يوم الأحد للاحتفال بعيد ميلاد زميلتهن (يسرية) وأخذن يتحدثن عن هذا الانفصام الخلفي ، صفحة (١٩) :

' - عندنا محمد أفندي راجل زي أولية الله تمام حاجج مرتين وطول النهار السنحة في أيده ن وطول النهار يكلمنا عن اللي يصح واللي ما يصحش ، والمصيبة أنه مش بيدعي ، ده جد تلقيه كريم وعنده نخوة وشرف ونبيل ، أل أعرف لك بعد كل ده أنه بياخذ على كل استمارة جنيه ، معتبرها عيب وكل حاجة ، إنما يقول لك على رأيه : (هادي نقرة يا ولد عمي وهادي نقرة) .

- ونروح بعيد ليه ؟ رئيس الإدارة بتاعتكم يا سناء بيلعب بوكر بدينه ، وقال إيه قتل ما يلمس الورق لازم يقرأ الفاتحة .

وتدخلت نور صاحبة الحفلة

- طيب أنا بعيني بقى شفت الحكاية دي ، الراجل اللي ساكن تحتنا ده موطف في شركة ن لو كنتم هنا إمبراح كنتو سمعتوا الصراخ جايب من آخر الشارع وكل يوم والتاني مولد بالشكل ده وعلشان إيه ده كله ؟ حضرته بينزل

ضرب في ابنه لما يجي متأخر من برة . ومتأخري عنده يعني بعد الساعة عشرة كويس كده ؟ إيه رأيكم لبنا واحد قربنا بيشتغل معاه لما سمع الحكاية دي مات م الضحك وقال مش معقول ده . أي حد تاني معقول ، إننا الراجل ده بالذات ده معروف عنه زي الشمس بيورد الستات لكل الموظفين الكبار في الشركة .

- ومستغربة ليه ؟ هادي نقرة يا ولد عمي وهادي نقرة .

- وارتفعت ضحكاتهن عالية . وما لبثت سناء أن قالت مواصلة نغمة السخرية :

- الظاهر الرجالة دول عندهم لكل مبدأ دوسيه ...الشرف في بيته غير الشرف في عمله ، والحرام في الليل غير الحرام في النهار ، والفضيلة ما تمنعش الرذيلة كله موجود في حالة تعايش سلمي .

ثم اعتدلت حادة لتكمل أرائها (الفلسفية) بقصة حقيقية عن رئيسها عم صفوت أفندي الرجل الذي هدهد عليها كالأب وحاول أن يقنعها باقتسام الرشوة والذي لا تخلو جملة من جملة من حديث شريف أو آية قرآنية . من يومين كان صفوت أفندي يحكي لي كيف اكتشف مرة مع ابنه الصغير إصنع طناشير ملون سألته عن مصدره فتلجلج ن وحقق معه فعرف أنه أحده من صندوق الطناشير في حجرة الرسم دون علم المدرس ...وكيف طلل ساعة يشرح له خطأه ويوضح له الجريمة التي ارتكبها ، وكيف أمره في النهاية أن يذهب في الغد إلى المدرس يعترف له بما حدث ويرد له الأصنع وكيف لم يفعل الولد . وكيف ضربه وأخذه من يده في الصباح وذهب معه إلى المدرسة وجعله يعترف للمدرس أمامه بما فعله وطلب

الصفح والمغفرة . قصة من فم عم صفوت أفندي . حكاها عرضا ودون أن يكون له من وراء حكايتها هدف ن وعم صفوت أفندي هذا لا يجد عيبا أبداً في الحصول بطريقة غير شريفة بالمرة على نقود تشتري آلاف أصابع الطباشير ؟ وأنهت سناء قصتها قائلة : أنها لا تزال إلى الآن حائرة مع صفوت أفندي لا تعرف كيف تحكم عليه والمنطق والعقل حين تنهي عن الشيء بحرارة وصدق حقيقيين في نطق وحرارة وصدق ترتكبه في نطق آخر؟ كيف تحكم عليه ؟) .

إن الشخصية إذ تفصل بين ما تؤمن به وما تمارسه بالفعل ، تفعل ذلك لا لشيء إلا لكي تتجنب عقابها لذاتها ، فهي أمار حارين ؛
الأول : أن يخفف من حدة وكثافة الجرم ويفرغه من محتواه بالأسلوب التبريري .
الثاني . أو يتجاهل تجاهلاً تاماً هذا التعارض الحاد بين ما يؤمن به وبين ما يمارسه ، وهذا بمثابة الدفاع الذاتي ، ليتجنب الشخص الوقوع تحت تأنيب الضمير الذي لا يستطيع الهروب منه ليلاً أم نهاراً .

وتخفيف الجرم والتجاهل يبقى عقاب الذات للذات معلقاً ، أو يبقى في منطقة الطل لا يتحرك ، وإذا ما عثرت الشخصية على شخصية أخرى تماثلها في الانحراف ، وجب حينئذ عقاب الذات للذات ، فالأب الذي يعمل قواداً في الشركة يعاقب ابنه عقاباً شديداً بمجرد تأخره في العودة إلى البيت إلى العاشرة والباشكاتب صفوت أفندي يقف أمام ابنه الذي سرق أصبع الطباشير موقف القاضي الحازم الصارم الذي لا تأخذه رافة في حدود الله ، ويمعن في هذا ويأخذه ويذهب به ليعترف أمام المدرس أنه سرق أصبع الطباشير .

فالأب هنا - في الحالتين - ينتقم من نفسه في صورة ابنه لقد رأى نفسه المنحرفة في ابنه ، فليعاقب ذاته من خلال عقابه له ، وليشدد في العقاب ، فهو يعد ذلك بسبيله إلى الراحة ، ألم يعاقب ذاته على ما فرطت فيه ؟ فقد يحلل الإنسان لنفسه شيئاً حرمه على الآخرين ولا تعارض بين الموقفين ، فقد ارتكب خطأ بأن حلل لنفسه شيئاً ، وعاقب نفسه في هذا بأن حرمه على الآخرين ، ولا انفصال - في رأيه - بين ذاته ونوات الآخرين .

وشخصية الباش كاتب تجسيد حي لهذا الانفصام ، وظهر ذلك من خلال محاورة (سناء) له ، حينما ردت على مظهره شيئاً (ص ١٧٠) ، " - بس دي حريمة ...سرقة...وأنت رجل طيب . دا كأنك يتمد إيدك في حبيب واحد لا مؤاحدة يعني ..ويتنشل منه فلوس ن إزاي ترضى تعمل كده ؟

- يا بنتي الأخلاق الكويسة حاجة ، وأكل العيش حاجة تانية .

- أكل العيش حتى بالسرقه ؟

- يا بنتي إنتي لسة صغيرة ع البر ما شلتيش هم المسئولة لما تكوني مسئولة

عن حبش زي اللي أنا مسئول عنه وكل يوم لازم تسدي ٢٠ بق مفتوحين

لك . مش ح نسبها سرقة أبدا ، أنا بسرقة مين ؟)

وكأن (سناء) اقتنعت في النهاية بهذا المدأ التبريري . فعند ما سألتها

الداشكاتب هل ستنفذ ما قالت له للجندي . (- أنا قلت له كده عشان هو ...هو

مش محتاح زيك وأخلاقه وحشة)

وحينما تجتمع مجموعة من الناس ، وتقر عمل من الأعمال . هذا الإقرار يعطي نوعا من الشرعية لهذا العمل الذي تزاوله تلك الجماعة . بغض النظر عن هذا العمل أهو خطأ أم صواب . فالذي يعطي تلك المعايير هي الجماعة المزاولة للعمل فرب عمل ما يكون في مجتمع خطأ وعيب ، ونفس العمل في مجتمع آخر ليس بعيب ولا خطأ . والذي أوجد هذا الاختلاف هو موقف كلا المجتمعين من العمل .

فالأول اعترف به ، وأقره فأصبح خطأ .

والثاني لم يعترف به . ولم يقره . فأصبح عيبا وحراما .

ولعظة العيب ليس لها رصيد إلا ما نعطيه لها الجماعة الإنسانية من تأثير يقول القاص في صفحة (١٧٢) : " كانت مزاولتهم لأعمال المكتب الثاني كجماعة قد أضفت على العمل نوعا من القانونية ومحا عنهم كل أثر للإحساس بالذنب) .

وإذا وجد فرد يناقض تلك الجماعة في سيرتها . فهو الدليل الدامغ أمامهم على انحرافهم . وتبدأ الشرعية تتقوض شيئا فشيئا بعد أن كانت سائدة . ولا يعكر صفوها شيء ، وإذا ما كانت (ساء) فعلى لجماعة المكتب . صفحة (١٧٢) : " سناء ووجودها واشمئزازها ونظراتها جعلت إحساسا جديدا يبدأ يزحف ... إحساسا بخرق القانون . بارتكاب معصية ! وقد تجسد هذا على هيئة ضيق شديد بسناء ووجودها ورغبة ملحة في التخلص منها " .

وبالرغم من أن سناء تعهدت لهم أنها لن تتدخل في شؤونهم . ولن تنخرط في عملهم . وأثرت الصمت . إلا أن مجرد وجودها السلبي هذا وصمتها كان له أبلغ الأثر في نفوس الجماعة . فهي - سناء - صفحة ماء صاف نقي ، ترى مجموعة

المصلحة على سطحها وجوههم النفة ، ونفوسهم الممتلئة بالدنوب ، المغلولة بالعيب ذلك لأنها تصدع جدران الشرعية الزائف الذي أقاموه بينهم ، باجتماعهم على فعل واحد ، والذي يضخم ويزيد من هذا الصدع أنها أنثى والمفروض أنها أضعف من الرجل . والرجل أقوى منها ، ليس في القوة العضلية فحسب ، بل في كل شيء وأهم شيء الإرادة ، إرادة مقاومة الانحراف والفساد ، فكيف لتلك الأنثى أن تقاوم وتقف وتعرض وتصر على ما لم يستطع عليه أولو القوة من رجال المصلحة؟! وهذا بمثابة العري الخلقى ، فالرجل قد يتعري أمام الرجل بدون أن يكون هناك خجل أما أن يتعري خلقيا على مشهد من أنتى فهذا أنكى وأشد على الرجل .

في صفحة (١٧٤) . " إن المدنوب لا يحسد البرئ ، إنه يكرهه ، ويحس به كأنه ضعيه . وكأن الضمير هو الجزء البرئ في قلب الذنوب . وسناء ذلك الركن الخامس البرئ في المكتب . كانت قد أصبحت كالضمير المقيم الذي لا يتحرك ، والذي لا تحفي عليه حافية ، والذي يقابل كل ما يدور أمامه بالصمت والسكون . ليتها كانت تتكلم أو تنصح أو حتى تشتم ، ليتها تفعل أي شيء . إلا أن تسكت والكارثة أنها ضمير مؤنث أن الرجل لا يخجل كثيرا أن يرتكب الخطأ أو الحماقة أمام زميله الرجل ، أي رجل ... ولكنه يخجل بشاعة أمام الأنثى أي أنتى " .

وهذا يلقي ضوء على نفسية المجتمعات الإنسانية ومكونات تفكيرها ونوازع تصرفاتها . ويؤكد أن أخلاق القطيع لا تنطبق على الإنسان ، فيكفي أن يسير فرد واحد في طريق مغاير حتى يسبب القلق والضيق والاضطراب لنقبة الجماعة وهذا يفسر مسارعة الجماعة لقتل الخارج عليها ، سواء كان الخارج هدا ثائرا أو نيبا أو مصلحا ، فهو يعطي نتيجتين:

الأولى : دليل حي على ضلال وانحراف الجماعة ، وكسر لشريعتهم ، يرون فيه كل ما يحاولون الهروب منه ، وكأنه لسعات ضمير قلق يريدون إخراسه إلى الأبد حتى لا يقض مضجعهم ويقلق راحتهم .

الثانية : إنه بمثابة شرارة نار مطهرة ، تنتقل إلى بقية الجماعة فرداً فرداً ، حتى تعطي الشرعية الكاملة للفعل المغاير لما تسير عليه الجماعة ، ومع مرور الوقت يزداد الفرد إلى اثنين وإلى ثلاثة وهكذا .

وبقيام الفرد بهذين العمليين يضطرب حال الجماعة وتدخل في طور من التغييرات ، وهذا ما ترفضه الجماعة المنحرفة منذ البداية .

(وكان طبيعياً جناً في مثل ذلك الجو أن تحدث ارتباكات في مزاولة العملية من محاولات كل منهم للتخفي واستدراج الزبون بأقل ما يمكن من الضجة وبسرعة لا تثير الانتباه ، وبالذات ابتعاد (سواء) هذه المحاولات كانت غالباً ما تفضّل وكثيراً ما تصدر من الزبون كلمة أو إشارة تفضح ، فيفقد الموظف أعصابه ويعدل عن الصفة نهائياً بين عجب الزبون ودهشته ، ويصر على أن يأخذ القانون مجراه وفي إصراره ذلك يرفع صوته ، ويعظ ويحاضر ، ويكاد يشهد الجدران والمكاتب والأثاث على ما يقول ، إنك بدأت تحدث منافسات وبدأ كل منهم يريد أن يبدو أكثر من الآخر غيرة على القانون وفي مقابل هذا بدأت تحدث اتفاقات خاصة ن وبينما الواحد منهم يرفض في العلن ويصر على الرفض إذا به يتفق سرا مع الزبون ويتقاضى النمن وحده ، بعيداً عن أعين زملاءه ، بعيداً عن الركن الخامس) .

إنها بمثابة ضمير الجماعة ، الكل يخشاها ، الكل يريد أن يرضيها ، وإن لم يرضها فلا يريد أن يغيظها . وهذا الموقف يوضح أن ليس هناك مبرر أن ينحرف الإنسان بحجة أن المجتمع يقر ذلك ، أو لا يعاقب على ذلك ، ولتكن نقطة الإصلاح من حيث يقف هو ، بل لا يضح الإنسان سمه في موقف : إن صلاح المجتمع كله مناط بصلاحه ، وفساده متوقف عليه ، إنما مسئولية أخلاقية تحتم على الإنسان ألا يكون مستقبلاً فقط من المجتمع ، ويكفر بما يكفر به ، فكل إنسان به شيء من طليعة التوري . أن يعارض ويقول لا ، يكون المنطقة التي تؤكد الصواب من الخطأ ويوم أن يعرف المجتمع - معرفة يقينية - أن هذا صواب وذاك خطأ لن يجرؤ أي فرد على ارتكاب الخطأ .

وليس هذا بالموقف السهل ، فهو موقف بطولي ، ولبس كل الناس أبطال فهو والمجتمع حصان ، والويل لمن يكون خصماً للمجتمع ، فهو الشاد وهو المنحرف وهو المدنب ، وكل النفوت ملتصقة به ، فهو الذي بدأ معادة الجماعة وعليه أن يتحمل .

وكان هذا موقف (ساء) من جماعة المكث ، فيها هي شعراؤها مكرهة مسرلة ولحيرة صفحة ١٨٠) (ومن الثامنة والنصف يبدؤن في الحضور ومن أول الناشكانب إلى محمد الجندي أحر القادمين نخرج التحية فاترة لا روح فيها ولا طعم ، هذا إذا لم يتشاعل بعضهم عن قولنا أصلا ، لا تغيير !! وكأنها هي التي أدنست . وكأنهم ليسوا المخطئين) .

إن قوة الجماعة لا يستهان بها في إجبار الفرد على قبول ما ترتضيه تلك الجماعة ، والمثل الشعبي يفلسف هذا الموقف بجلاء (كُـل ما يعجبك ، وألس ما يعجب الناس) فالمجتمع يريد كل أفرادَه متوافقين معه ، وليس من شاذ هناك .

٢- السقوط :

(سناء) فتاة طاهرة نقيّة ، أكثر ما نخشاه العيب والحرام ، رُبيت على الخلق القويم ، لم يعكر صفو تلك الطليعة إلا تجارب مبتورة الأوصال ، فعلاقة الحب التي نشأت بينها وبين طالب الطب حالما نبذتها عندما أصر هو على حب (الجسد) بينما هي لا تؤمن إلاّ بحب الروح ، والتجربة التي مرت بها مع زوج حالتها حينما أراد اغتصابها وقاومت مقاومة عنيفة . وكان مصدر مقاومتها مبرم الخرام عدها (٩٨) : (ولكن لا المفاجأة ولا الإطباق ولا السرعة التي حدثت بها الحادثة كانت السبب في رعبها ، الرعب الذي اجتاحتها وشل إرادتها وجعلها تناضل مناضلة النائم في كابوس يخرج عن حلقه صوت ، ولا يملك رفع أصبع ... هذا الرعب كان بسبب أكبر وأخطر . إنه زوج خالتها المحرم عليها والمحرمه هي كأمه كاخته كخالته- الرعب أن يسجل رجل لنفسه - أي رجل - مهما كان سيء السمعة والأخلاق مثله ، أن يفكر مجرد تفكير في الشيء الذي لم يفكر فيه لحظتها وإسا كان يفعلها) .

فهي تعطي للحدث أكبر قدر من الشاعة ، وتلك النظرة ناتجة عن نفسها التي وعت بعمق ذهنيا وفعليا مناطق العيب والحرام ، وألت على نفسها ألا تقترب من تلك المنطقة المحرمة عليها تحريما أبديا ، والأطر الأخلاقية لتلك الشخصية

وضحت بجلاء من خلال صراعها مع (محمد الجندي) ومقاومتها ورفضها الانخراط مع جماعة المكتب لبيع التصاريح .

ونلاحظ أن القاص منذ بداية الرواية يحشد تلك الشخصية بكل تلك القيم والبادئ الخلقية ، ويرفعها إلى مكان عال فوق الآخرين . ويجعلها الضمير الحي اليقظ في المصلحة ، ليصل الأمر أن الكل يخشونها ، ويتجنبونها لا لشيء إلا لقوة الخير وإرادة النعد عن الانحراف والفساد والعيب ، وهو إذ يفعل هذا يبدأ في طريق موازن نسح الخط الدرامي لشخصيتها . فهو لا يرتفع بها بكل ثقة واعتداد وفخر إلا ليلقيها بلا رحمة إلى أسفل سافلين .

ولكن أهذا يتفق مع المنطق الذي يعرضه العمل الفني ، ويؤيده الحدث الدرامي ... هذا المنطق الذي سنكتف بكل وصريح إذا ما سألنا أنفسنا

- لماذا نكصت (سناء) عن طريقها الذي كانت تسير فيه متحدية جماعة المكتب ؟

- وما سبب سقوطها ؟ هل يعرضها العمل الروائي أم هو مقحم على العمل من القاص ؟

من الميسور على الإنسان أن يؤمن بجملة من المبادئ والقيم ، ولكن هذا الإيمان هش ، لبس له جذور . ما لم يكن محصلة تجربة مر بها الإنسان ، وكانت تلك التجربة تضع الإنسان بين خيارين ، وهذا الاحتيار له مسؤوليات لا مناص من تحملها ، فإذا ما سار في الطريق إلى آحره بأن اختار بين البدائل وتحمل نتيجة هذا الاختيار ، بنفس واعية واقتناع كامل ، فقد ثبت للابتلاء ، وأيقن بأيمانه الراسع

وحلاوة ومتعة الإيمان بشيء لا تأتي إلا إذا نال الإنسان في سبيلها المشاق ، فهي تزيد من تمسكه بمبادئه التي يؤمن بها ، هذا التمسك مصدر المتعة التي يعيشها ، لأنه بهذا مع حقيقته وجوهره الذي خلقه الله عليه .

وقد كانت (سنا) تؤمن بتلك المبادئ التي تنأى بها عن الانخراط مع جماعة المكتب ... قد يكون موقف (سنا) هذا نوعاً من الخوف ، وهي الخام التي لم تدر شيئاً عن أساليب العمل في المصلحة ، إلى جانب أنها أنثى ، الخلقاً عندها له صورته المكبرة ، المحاطة بهالة من التحريم والعيب ، أو نوعاً من الترفع عن الخلق ليس إلا ، فهي ليست في حاجة أن تضع نفسها في موقف محاط بالشبهات ، وهي في غنى عما سوف تأخذه من ذلك ، أو تريد أن يكون لها ما يميزها عن جماعة المصلحة ، وهذا يخلق لها نوعاً من التفرد ، أما أن نقول أن إيمانها بقيمتها هو الذي منعها من أن تسير مع تيار موظفي المكتب ، فهذا ما نستطيع أن نجزم به .

ولكي نقف على حقيقة ودوافع الشخصية ، الأمر في حاجة إلى ابتلاء أو صراع أو شد وجذب ، وموقف حرج تكون فيه الشخصية ، ومن خلال تصرفها تتكشف دوافع ونوازع تلك الشخصية .

قضت (سناء) ليلة ليلاء حينما لم تستطع أن تدير مصاريف مدرسة أختها (أسامة) والتي بدونها لن يستطيع أن يدخل الامتحان ، ولا يستطيع - من خلال الأحداث - أن نقول أن بالقصة صراع ما ، فهو ليس موجوداً ، والشخصية لم تتعرض له ، فقد أثرت الشخصية من أول لحظة أن تتخلص وتختلى عما كانت تؤمن به ، في سبل أن تفر مصاريف أختها (١٠٢) .

(يومها كانت مستعدة أن تقتل أو تسرق أو تصنع أي شيء في سبيل أن نحصل لأختها على قيمة القسط ، فليلة الأسس بكى لأول مرة تراء مند أن كبر يبكي كما كان يفعل وهو طفل . كانت تتناقش مع أمها في كيفية الحصول على النقود ، وطرقا بنقاشهما كل الأنواع والاحتمالات دون جدوى ، حتى بات واصحاً أن النقود لن تأتيهم إلا إذا فتح الله سبحانه سقف ححرتهم وأسقط لهم من خلاله قيمة القسط . وكان النقاش قد استغرقها إلى درجة نسيا معها أن أسامة موحود حوارهما ، ولم يفلنا للوحيد ، إلا حين سمعتا بكاءه ، والتفتا لتحددا دموعه نلمع بكثرة ، فوق وجهه ، وحيبة الأمل مرتسمة بصورة واضحة تنطلقها رعم طغولتها الحرساء ملامحه ، ولحظتها صدر عن كل ذرة من كيانها قسم تلقائي دفاحي غير منطوق وبدون أن تعي أو تريد ، قسم أنها لابد واحدة حلا .. لابد صابغة المستحيل وما هو أكثر منه كي لا يدرف أسامة دمعة أخرى ، أو نرسم على وجهه هذه الصورة الخرساء لخيبة الأمل) .

لقد انتهى الصراع قبل أن يبدأ ، بتخلي الشخصية عن كل ما تؤمن به من أول اختبار ، فقد كانت تظن أن الإيمان بقيمة بمثابة حلية تنحلي بها ، كأسورة أو خاتم بدون أن تعاني أو تقاسي .

فقد بحثت وسألت كل من تقابله كي تسدد قسط المدرسة ، ولكنها لم تجد فلا زميلتها (نور) ولا الباش كاتب ، ووجدت كل الأبواب قد سُدت في وجهها ولم يستطع أسامة دخول الامتحان .

ووجدت مشكلة أخرى بعد تغيبها عن عملها دون إذن ، فقد آلت على نفسها أن ترفه عن (أسامة) بعد اليوم العصيب الذي مر به ، ولكي تأتي بشهادة من طبيب ليحتسب اليوم أجازة يلزمها خمسون قرشا ، وظلت تلح على زميلتها حتى استطاعت أن نطفر بالخمسين قرشا وبالشهادة .

لقد قتل الموقف الذي مرت به كل نوازع الخير في نفسها ، وتخلت عن كل ما كانت تتمسك به من قيم ومبادئ ، فلم تصمد للتجربة ولم تعاند ولم تتحد ، وإسما انهارت من أول ضربة وُجِئت إليها ، وبدأت تنسى أفكاراً وقيماً مغايرة لما كانت ترضى به ، (١١١) ، أفاقَت لتجد نوعاً من عدم المبالاة ، قد أصبح يصنع تفكيرها وأرائها ونصرها وبها وكانت اللحظة الصاعقة التي عانت فيها من الشعور بأنها مبعدة مندودة قد جعلتها هي الأخرى تبدأ تنبذ الناس في تفكيرها وتصرفاتها ، لم بعد مهما ان تطفر برضائهم عنها ، وبين يوم وليلة مלאها الشعور بأنها لا تملك في هذه الدنيا ولا يجب عليها أن تراعي سوى نفسها ، شعور لم يكن عميقاً خافياً ، لقد طير حتى لزميلاتها ولاحظوه واتخذوه مادة لتعليقاتهم .

المواقف وحدها والتجارب هي التي تطهر حقيقة الشخصية ، وقد خرجت (سناء) من هذه التجربة بنتيجة ...أن نطافتها لم تتحمل ثمنها ، ولكن أخاها هو الذي تحمل تلك النتيجة ، وبدأت تؤمن ببدء غريب ، مدأ الناش كاتب التي كانت تستنكره ، منطلق تبرير الخطأ والانحراف ، بالحجة الباطلة . حجة التضحية بالنفس من أجل الآخرين . وكأن انحرافه وقبوله الرشوة سيعود بالنفع والخير على الآخرين ، فهذا منطلق معكوس نتبناه الشخصية للتوافق مع الواقع الفاسد . وتطن أن نتبنيها إياه ستعقد مصالحه بينها وبين واقعها التي لم تستطع أن تعارضه أو تتمرد عليه .

في صفحة (١٢٢٣) . (إن ما يحدث لأسامة والاضطراب الخطير الذي اجتاح حياته بعد حرمانه من الامتحان هو الثمن (لنطافتها) ثمن لم تدفعه هي ولكن تحمله وسحق به هذا الصبي ، الذي لا ذنب له ، إنه كالنبات النامي لابد له من الحصول على الماء والغذاء . والا هلك ، ولابد لأهله أن يوفر له هذا وبأي ثمن . وبأي وسيلة . لا يئمه أبدا نوع المصدر . ترى هل يغفر لها الآن أو حين يكبر وهي المسئولة عنه وعن عائلتها الصغيرة - إنها جعلته يقاسي من ضربة معطلة قاصمة ، فقط لتظل في نظر نفسها وفي نظر الناس محترمة نظيفة ؟ إنها تعرف أباء وأمهاة يحللين الحرام ليوفروا لأولادهم الغذاء والكساء . (محمد الجندي) في كل قدرته لا يفعل أكثر من أن يوفر للحيش الجرار الذي أوجده على سطح الأرض حاجته سعنى آخر هو يضحى بذاته ويلوثها لينقذ أولاده . أيها إذن أكثر نطافة ؟

لقد أمضت ساعات الصباح تعطي الجندي دروسا في النظافة والصواب والخطأ ، لماذا لا تواجه نفسها الآن كما واجهته وتتعترف بالمعنى الحقيقي لما فعلته ؟ أليس معناه الحقيقي أنها كانت أنانية إلى درجة دفعتها للتمسك بذاتها وقيمها حتى ولو أدى الأمر إلى تشريد أخيها الصغير وأبنها وحبيبها الوحيد ؟ وأليس معناه الحقيقي أيضا أن (محمد الجندي) أقل منها أنانية بل هو ملاك إذا قيس بها ، مسيح صحن بذاته ولوثها ومرمطها من أجل أن ينشأ أبناءه الدين بحبهم نظافا صالحين) .

شيئان يدفعان الإنسان دفعا أن يستحل الحرام ، أولهما : قسوة الواقع .
وثانيهما : الآخرون الذين تربطهم به علاقات وطيدة .

فالإنسان لا قبل له بأن يتحمل واقعا قاسيا ، فهو يسعى إلى تغييره بأي طريقة شرعية أم غير شرعية ، فإذا كان المجتمع ونظامه على صواب ، سلك الإنسان الطرق الشرعية لتغيير واقعه ، أما إن لم يكن على صواب ، وفُرض على الإنسان فرضا بكل عيوبه ونقائصه ، فقد يسلك طريقا آخر مضادا للنظام ، ويكون ذلك على هيئة ثورة أو تمرد ، وإن لم يكن فليس ثمة إلا الانحراف والإفساد واصطناع كل السبل والحيل للحصول على المال .

والذي يدفع الإنسان إلى هذا ليس رغبة داخله ، فداخله نقي متمسك بالقيم والمبادئ ، ولكن الدافع خارجي متمثل في أن هناك أخا وزوجة وأولاد ... بحيث لو أبعد عن تلك المؤثرات لأنعدم الدافع ولأنعدم الانحراف ولبقى الإنسان على صلاحه ونقائه .

فكل شخصيات الرواية مدفوعة بدافع خارجي لخرق القانون وارتكاب العيب ، الباش كاتب من أجل الأولاد وزوجه . لأنه لا يستطيع أن يوفّر لهم ما يحتاجونه . حتى (محمد الجندي) الذي كان يجد متعة كبيرة في خرق القانون - أي قانون - يفعل هذا تحت دافع خارجي مثل في قصة والده في ريشه (١١٩) ،

(طوال عمره ومنذ أن كف أبوه عن ضربه وعقابه وصب الأوامر والنصائح كالزيت المغلي فوق رأسه ، منذ أن مات كأنما عاهد نفسه بعدها ألا يستمع لنصح أحد سواء أكان مخطئاً أم مصيباً ، وسواء أكانت النصيحة من عاقل أو أحمق بل لقد جعل شعاره بوعي منه أو بغير وعي ، أن يخالف كل ما يقال له من نصائح وهوايته الكبرى أن يعصي القوانين ، إن القانون يظل عدوه اللدود إلى أن ينجح في خرقه ، التعليمات نظل شيئاً لا يطاق إلى أن ينح في العثور على وسيلة يستطيع أن يتحايل بها عليها وليس فقط القوانين واللوائح المكتوبة أكثر من هذا وأبعد ، كل ما يأخذ شكل القانون إذا تصادف ووجد ، رحام القيشاشي في أي دورة مباد يدخلها لامعا نطيفاً أنيقاً لا يستريح إلا إذا أحرح قلمه الكويبا وشخبط حتى يشوه المنظر . إذا جلس على مقعد عربية الأتوبيس سرعان ما يخرج سلسلة مفاتيحه وبها المطواة الصغيرة ذات السلاح الحاد الذي يفتحه ويعمله في جلد الكرسي وفي تخف شديد يقطعه حتى يطل القطن ويعمله في الجوارب حتى يظهر معدنها . وإذا أردت أن يكرهك كره العمى فانصحه نصيحة) .

وإذا كان الإنسان يرتكب ما يرتكبه من أجل الآخرين ، فهو في نفس الوقت يرتكب في حقهم أكبر الخطأ بما استحله اليوم لطروف قاهرة ودواعي مجبرة . واضعاً ما يشاء من تبريرات عقلية ، فإن ابنه أو حفيده مستقبلاً سيرتكب نفس الفعل

الخطا بدون أن تكون هناك دوافع وبدون أن يكون في حاجة إلى تبريرات ، لأنه سينظر إلى الفعل مجرداً عن ملابساته المختلفة.

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ سَبِيلٍ ؕ وَإِنَّا عَلَىٰ سَبِيلٍ مُّتَّبِعِينَ ﴾ [سورة الزخرف: ٢٢]

فإنسان لا يرث عن والديه مالا فقط نل يرث أيضا خلقا وقيما وصالى (١٣٤) (أفكار تطرق عقلها وتقلب تفكيرها رأسا على عقب ، وتجعلها تغوص وتغوص في التأمل على هدى هذه الخواطر ، إننا حلقة واحدة من سلسلة طويلة نصل فيها بين أبائنا وأجدادنا وبين أبنائنا وأحفادنا ، ونفعل هذا رغماً لأنه وضع لم نستشر فيه ، فقد خلقنا بما ورثناه عن أبائنا وأجدادنا من علامات وبما سنورثه لأبنائنا وأحفادنا . من أجل هذا نحن لا نملك أن نفكر في أنفسنا كأنفسنا فقط ن وغنما علينا أن نفكر فيها باعتبارها جزءاً من سلسلة وهمزة الوصل بين جيل مضى وجيل مقل ، بحيث نعي أن القرار الذي نتخذه لا يخصنا وحدنا ولكنه سيؤثر أعمق التأثير في حلقات السلسلة من بعدنا . وأولئك الذين يفكرون في أنفسهم (كأحرار) (كان موجود) (كان البداية والنهاية) أناس مخرفون يتجاهلون ألف باء الوجود الإنساني ، بمعنى أدق يقطعون بهذا النوع من التفكير أنفسهم من سلسلة البشر يصحون كالسبقان والأذرع المتبورة عمرها محدد بعمر خلاياها في حين وهو أعضاء ومكونات في السلالة البشرية عمرهم يبدأ قبل مولدهم بملايين السنين هي عمر البشرية قبل وجودهم ، وعمرهم يظل ممتداً بعد موتهم بملايين السنين هي عمر البشرية من بعدهم . من المهم إذن أن نتحدث عن أنفسنا وقيمنا والحرام

والحلال والعيب والملا عيب بالنسبة إلينا ، أن نضع في اعتدالنا أنها ستكون كذلك أيضا بالنسبة لأبنائنا ومن بعدهم بالنسبة لأحفادنا) .

فالخطأ الذي يرتكبه إنسان ما لا يحق بوحدة . وإنما يشمله ويشمل الآخرين فنتيجة الخطأ هنا مزدوجة . ولكن هل سقطت (سواء) من أجل أخيها حقا ؟ وهل يسقط الإنسان في العادة من أجل الآخرين ؟ لا . فالإنسان أكثر أنانية من ذلك فالأمر واضح وحاسم وقاطع فإذا أصاب الإنسان فمن أجل نفسه . كذلك إذا أخطأ فمن أجل نفسه أيضا . و(سواء) لم تسقط من أجل (أسامة) كما تقول .

(الآن وفي المساء وبعد أن احتضنت (أسامة) وشعرت بحسده الصغير الدافئ كئلة حبة مجسدة وملموسة بدأ الشك يتسرب إلى إيمانها داك ، ولم تعد واثقة كل الثقة أنها الأحسن والأنظف والأكثر شرفاً وسمواً) .

هي لم ترث لأسامة . وإنما رثت لنفسها وارنكت ما ارتكته لنفسها فحسب ولكن الإنسان لا يستطيع أن يواجه نفسه بالحقيقة . وإنما يرى الحقيقة متوارية في دوات الآخرين ن فهي لا يعينها (أسامة) وإنما تعينها ذاتها . كيف لم نستطع أن نوفر ما يحتاجه (أسامة) الأحرار المتعلق بذاتها . بغض النظر عن الآخرين بدليل أنها كانت تريد أشياء كأي فتاة في مثل سنها . والحصول على تلك الأشياء لا يتم إلا بطريق ملتو لا تستطيع أن تسلكه صراحة .

أو قل أن احتياحها لمثل تلك الأشياء والإحساس بها كان مؤجلاً . أو لم نعطه البعد الحقيقي لعدم تحقق الدات . فكيف تلبى احتياحات ذات لم تتحقق بعد ؟

وما حدث لأسامة ، أعطى لذاتها صورتها الحقيقية من عدم تحقق وحرمان
وفاهر المرفق كما لم نستطع سناء أن نواجهه وأثرت تأجيله أو رفعه من تكبيرها : (ورأسها
الصغير رغم شعرها الناعم الغزير ملئ بالأحلام أيضاً ن باقتناء الملابس الفاخرة
الأنيقة بحياة الثروة والغنى . بالطموح - أحلام تتغير هي الأخرى وتتجدد ...
إذ بينما كانت تحلم في العام الماضي بجواني من الجلد الفاخر الميطن بالفرو
في هذا العام هي تحلم بأن تبلغ في وظيفتها شأوا ومرتباً تستطيع أن تدفع منه
أقساط عربة نصر ١١٠٠ وتسوقها وحدها وتفسح أمها وتذهلها بها) .

قد تقول أنها أحلام ومطامح ، ولكن لا سبيل إلى تحقيقها بالطريق السري
قط . ووجدت (أسامة) لتعلق عليه سبب سقوطها ، كما علقتم (عزيزة)
سقوطها على جذر البطاطا في رواية (الحرام) . ويتضح ذلك من خلال موقف
سناء بعدما عرض (عبادة بك) عليها رشوة ، وكان التغيير الذي طرأ على سناء
هائلا . فليست هي التي رفضت من قبل قبول الرشوة بكل إباء وتصميم ن فبعد
حدوث ما حدث أيقنت إيقانا كاملاً بحاجتها إلى المال ، بأي طريقة ، فكل إنسان
في حاجة إلى تحقيق ذاته ، وهذا دافع طبيعي . ووجدت (سناء) أن طريقها
في تحقيق الذات لم يزددها إلا شحوباً وذبولاً ، وشعرت بنفسها منبوذة ، ملعونة من
جماعة المكتب ، ليس أمام جماعة المكتب فقط ، بل أمام أخيها ، ومن قبل أمام
نفسها ، إذن فهي على خطأ ألا نسرع النيار ، واستدلت الخطأ بالصواب ، (١٢٦)

(كان التساؤل هو ... ماذا يحدث لو أخذتها ؟ تساؤل شكدا يلقي ويعود يلقي

دون أن تنتظر إجابة عليه . ماذا يحدث لو أخذتها ؟

ماذا يحدث ؟ ماذا يحدث ؟

كل ما كانت تريد هو مهملة خاطئة نستطيع بطريقة ما أن نوقف هذا التساؤل المتواصل المزعج وتعتبر فيها ، ولكن بدا وكأن عقلا نفسه لا يريد هذه المهلة ولا يريد أن يفكر ويريد أن تتصرف بوحى من غرائزها البدائية الأولى الغرائز التي تنجذب إلى الدفء والنور وتنفّر من الأشياء لا بحسب قيمها الظاهرة المحسوسة ومعانيها التي تتلخص في معنيين اثنين... أهذا الشيء يضر جسدي حتى أهرب منه أم يعيده حتى أحصل عليه) .

أما وقد تركت الأمر للغرائز البدائية المنفلتة من كل قيود القيم ، فقد انقلبت إلى إنسان شره نهم لا يعنيه سوى ما يحصل عليه بأي طريقة وبأي أسلوب . (١٣١) . (ويحكم هذه الغرائز لو كان لص دخل الحجرة في ذلك الوقت لاستمات سناء دفاعا عن الرزمة بحكمها كانت قد أصبحت ملكها وبحكمها أيضا قد أصبحت المشكلة لا أن تأخذها أولا تأخذها وإنما هي كيف تدافع عنها وتمنعها من التسرب من حوزتها) .

وهكذا تخلت الشخصية عن كل قيمها وكل مبادئها بقبولها الرشوة من (عبادة بك) وقد أهمت نفسها أنها لا ترتكب خطأ ، واصمة تلك الأسوار حول داتها كي تدافع عنها ، إذا ما حالها شك أنها مدانة ، فكل ما تفعله من استخراج تصاريح الاستيراد لعبادة بك هو من صميم عملها ليس إلا ... فقد استشارت الناش كاتب وأشار عليها بملء خانات التصاريح وما هي تؤدي عملها (١١٤) : (هل حدث أن تحرك موظف أو موظفة واضعا بيع ذمته كهدف ؟ على

الإطلاق لم يحدث شيء من هذا . إنه دائما يتحرك موهما نفسه مؤكدا ومقسما ومؤمنا إيمانا لا يتزعزع إنه إذا يتحرك فإنما ليؤدي واجبه فقط لينجز عمله عسكري المرور الذي يقبل القروش العشرة حتى لا يحررك محضراً يوهم نفسه بأدلة يضعها أو يصطنعها أنك فعلا لا تستحق المحضروأنه بالغائه إنما يؤدي واجبه الذي يبلية عليه ضميره . وما العشرة القروش سوى مبلغ تطوعت أنت بدفعه سداجة منك وعطفا . إذ كان هو على أي الحالات لا ينوي تحرير المحضر) .

موقف يغالط الإنسان فيه نفسه . ذلك لأنه ليس له قدرة على ارتكاب الخطأ ن وليس لديه قوة على اجتنابه . ولا يفعل شيئا إلا بعد الاقتناع به . وهو إذا اقتنع فقد أزال كل الحواجز والعقبات من قيم ومبادئ . وإذا ما فعله فهو في حاجة إلى الدفاع عن نفسه وبذلك يستبدل الصواب بالخطأ . وتقلب المعايير . وهو في ذلك بر بأربع مراحل :

١- وضع تبرير للانحراف

٢- الاقتناع به .

٣- فعله .

٤- الدفاع عنه .

ويعمل الإنسان بعد ذلك ما يفعله سمس راجية وعقل مفتح وضمير مستقر وكما يقول
(عيادة بك) وهو في طريق نجاحه في إعراف (سناء) يقول الرسوة : (١٤٥) :

(علامة يعرفها جيدا إذا الخبرة قد علمته أن الشخص يبدأ في إقناع نفسه
أن فعله أمر لا غبار عليه يكون فعلاً وحقيقة قد بدأ يدافع عن الشيء الذي عليه
غبار مؤكداً لنفسه أن لا غبار عليه الدقة) .

والسقوط هنا ليس محدود مكان . ولكنه سقوط أبدي يلزم الشخص مدى
الحياة . فقد تخلى عن قيمه . وبخلىبه هدا عن نفسه . فهو لن يبع التصاريح . وإسا
باع نفسه ولن يقض ثمن نفسه . وعبادة بك كان يدرك هدا . لذلك يح خاحا متطوع
الظبر في إعراف سناء (١٤٦) . .. هنا لا يعنى قيمة ما يستحقه الشخص . ولكنه يعنى
على وجه الدقة قيمة ما يطرح هو في الحصول عليه . أي معنى آخر قيمة ثمنه
في نفسه ... عليك أنت أن تتمنه بأعلى بكثير مما توقع أو يستحق . ولا تحشى
الخسارة أو بعثرة نقودك فأنت لا تشتري إمضاء لمرة ... أنت تشتري شخصا بأكمله
ووظيفته ونفودا إلى زمن لا نهاية له) .

وإذا كانت ضريبة النطافة والتمسك بالضدير التي دفعتهما (سناء) هي
شعورها بالوحدة داخل إطار مجموعة المكتب وأنها منبوذة وملعوبة . وكأنها كائن
غريب وسط قوة لا تفهمهم ولا يفهمونها وبخليهم عنيا وقت حاجتها إليهم . وقد
كانت هناك مكافأة سطرها سناء على سعبا صميرها وبخليا عن قميا وقربها الرسوة من جماعة
المكتب (١٠١) . (وجدت سر صفقة الخميس قد بسررت إلى الزملاء والأعراف
... من الباشكاتب من خفاحة أو من عبادة نفسه . تفصيل لا يهمها في قليل أو كثير

والغريب أنها بعد برهة وجدت نفسها غير ساخطة ، أكثر من هذا سعيدة . بهذا التسرب لكان حائطاً سميحاً كان يفصلها عن سليمان وأحمد والباش كاتب والجندي قد تهدم من أساسه .

ولم يسخر منها أحد ، ولم يحاول أحد أن يعايرها ، بالعكس أقبل الجميع عليها ، وكأنها نجحت في امتحان وانتقلت إلى خانتيم ، أولكأنها الأخت المريضة التي عُوفيت وشُفيت وأنضمت إلى العائلة والتحفظ زال والحرص في المعاملة اختفى والحجرة تحولت إلى مكان عذب خفيف الروح يغري بالإقامة) .

وكأن هناك قانون يحكم تلك الجماعة ، أو من المحتمل أن يكون نفس القانون الذي يحكم أي مجتمع من المجتمعات ، قانون يعاقب المحسن وينيب المسيء ، فهرم الأخلاق هنا مقلوب ، الشرف والأمانة والضمير ، كل تلك القيم مدانة ، أما ما يناقضها فهي المعترف بها ، والسائرة في عرف تلك الجماعة ، فقد باركت وكافأت الجماعة (سقوط) سناء بعد ساعات على ذلك السقوط ، وسعدت وأسعدتها حينما باعت قيمها ، بل باعت نفسها .

إعادة التشكيل :

موضوع القصة محفوف بالصراع والشد والجذب . فهو صراع على القيم والمبادئ . وصراع القيم والمبادئ أشد أحمى من صراع الأسلحة . فقد يخرح الإنسان من معركة الأسلحة مجروحاً ثم تتكفل الأيام بتضميد جراحه . أو يقتل أثناء المعركة وينتهي الأمر . أما صراع القيم فقد يُذبح الإنسانُ ويسيل منه الدم وهو حي ينام ويستيقظ ويأكل ويشرب ومع ذلك فهو مذبح ؛ لأن قيمه قد انتهكت . والقيمة لا تتحدد بمعيار السلوك الفردي أو الجماعي فحسب . بل لجبل أو أجيال كثيرة ومن الصعب محوها . كما أن من العسير نشرها . فهي حرب ضروس لا هوادة فيها . والمر على هذه الصورة . أما كان من الأحدث للقاص أن يجعل شخصيته الرئيسية رجلاً بدلاً من امرأة ؟ فالمرأة ليس لها قدرة على الصراع والعراك والخصام . فالوضع الصحيح أن تكون الشخصية رجلاً قادراً جليداً على الصراع ... أما أن تكون الشخصية امرأة فهناك مغزى وهدف يقصده القاص من وراء ذلك .

القاص لا يريد أن يعطي الصورة الحقيقة لجزئيات الواقع المعاش . فهذا نوع من التسحيل (الفوتوغرافي) . ليس وراءه طائل . فمهمته أن يعيد تشكيل الواقع ليخلق في نفس القارئ موقفاً منه .

فالعادة والإلف للواقع يخلق نوعاً من الاستئناس أو المعاشية في وئام بين الإنسان وواقعه . وتأتي هنا مهمة القاص . وهي صدع هذا الإلف والاستئناس حتى يرى واقعه بدون زيف . وبعد ذلك يكون للقارئ موقف أما بالرفض أو التغيير . أو التمرد .

فقد أراد القاص أن يشع صورة الرشوة ، ويعطي لمعنى الرشوة نوعاً من التكنيف ن لتكون الجرعة مركزة تركيزاً يدفع القارئ لجنة من الجهات ، فالنافذة التي اطل منها على الواقع الفاسد امرأة ، ومن عادة المرأة أن لا ترى النسب الحقيقية للأشياء ، وإنما تضخمها ، ولا ترى الحرام أو العيب شيئين من لوازم الواقع ، وإنما تواجهها في صورة أشنع وأكبر ، فتلذذ الأشياء لا تمس كرامتها أو سمعتها فحسب ، بل تمس شرفها ، كأمراة ، تلك المنطقة التي تهون الحياة وتهون المرأة إذا هانت . وهذا ما شعرت به (سناء) حينما أراد (الجندي) أن يشركها معه في بيع التصاريح ، (٦٢) (الإهانة الحقيقية أنه لا بد قد وضع في اعتباره وهو يرسم خطته احتمالاً شبه أكيد أنها من الممكن أن توافق الإهانة الحقيقية هو ظنه شيئاً لهذا فيها ، وليست إهانة لشرفها فقط وكرامتها ، وإنما الإهانة العميقة هي أن هذا كله وجه إليها من رجل ، الإهانة الأعمق والأخطر إنها فتاة - أنتى - وأن رجلاً هو الذي ظن فيها هذا الظن ، وعملت بتلك الطريقة بما جرحت هذا الجرح العميق ، لا عرفت أن ما حدث سنة أو تيمة عادية وجهت إليها إلى شرفها ، هي في الحقيقة إهانة لأنوثتها ، لشرفها ككاتبة أو كفتاة تعمل . إهانة ليس ردها الصفع أو الركل وكيل أقبح الألعاط ، فمهينها رجل ... الرجل لا يهمله أن يُسب أو يُشتم أو شخصيته أو مكانته ولكنها أبداً لا تخدش شرفه ولا تجرحه هذا الجرح الغائر الدامي ، ماذا تفعل وهي تحس بشرفها الأنثوي مهاناً ومجروحاً ، وهي عاجزة حتى عن الرد كرجل أمام رجل ؟ عن السب حتى أو الصفع ؟ أهنالك ما يقتل من الغيظ أكثر من أن تجد نفسها في موقف المعتدي على شرفها ، والعاجزة في نفس الوقت عن رده ؟ بكاؤها الشيء الوحيد الذي أفلت

منها يكاد يعميها ، فرد الإهانة التي تلحق بالشرف ردها بمجرد البكاء إهانة في حد ذاته . إهانة صادرة منها هي ، وأي مأساة أن ترد عدوان غيرك عليك وإهانتته لك بأن تتولى أنت الآخر إهانة نفسك أمامه . أي عار) .

فهني في دفاعها عن قيمها ومبادئها لا تدافع عن أشياء خارجة عن ذاتها أو عن أسماء أو عناوين . وإنما تدافع عن شرفها ، الذي يقرر أن تكون أو لا تكون تدافع عن وجودها ، والقاص يريد أن يساوي بين القيم والمبادئ والشرف بعينه فقد يتغاضى الإنسان عن أي وكل إهانة إلا تلك التي تمس شرفه وعرضه .

ويعرف (عمادة لك) أن من الصعب شراء المرأة ، سيما من المسور شراء الرجل (١٤٠) . وقد علمته الأيام والتحارب أن النساء أصعب في بيع ذمهن بعشرات ومئات المرات من الرجال . بل المرة الوحيدة التي فشل فيها وحاب كانت أمام إحدى المطلقات الكئيبات (

فالأمير مع المرأة عاية في العسر . فليس لديهن الجراءة ولا الشجاعة ولا التبرير الوحيد عند الرجل . فإذا كان الرجل يقادر على ارتكاب الخطأ وهو في نفس الوقت معتقد بتحريمه وتجريمه ، تلك القدرة ليست عن المرأة . فهي ليست بمرونة الرحولة مماثلة في القدرة على الانسلاخ من بين حواجر القانون والقيم . (١٤١)

(شخصيات هؤلاء العنقات المتماسكة المترابطة ككتلة واحدة تضم قيمهن جميعا ... وكلنا قيم متحدة واحدة ... الحرام فيها حرام تحت مختلف الظروف والأحوال والحلال أيضا واحد والعيب في العمل مثله مثل العيب في الشرف وما يعيب في البيت يعيب أيضا في المصلحة . كتلة مترابطة واحدة وفرق كبير بينها وبين قيم

الرجال الموزعة على أدراج ودوسيهات . بحيث يحيا الرجل صادقا بأكثر من
مقياس وأكثر من شرف وأكثر من حلال أو حرام ويستدعي - إذا اضطرته الحاجة
المقياس الذي يناسبها) .

تلك الفروق بين الرجل والمرأة ، وإن كانت في صالح المرأة إلا أنها فروق
ليست إيجابية بالرة ، فهي لم تدفع الشخصية الصالحة (سناء) أن تأخذ موقفا
ضد جماعة المكتب ، لذلك لم تصمد الشخصية للصراع ، فحالما انهارت .

obeikandi.com

الفصل الثاني

الحرام

- ١- المحور الأول : موقف أهل النفيش من الحرام .
- ٢- المحور الثاني : واقع عبدة .
- ٣- المحور الثالث : موقف أهل النفيش من الغرامة بصفة عامة ، ومن عبدة بصفة خاصة .

obeikandi.com

إذا كان "يوسف إدريس" قد وضع شخصيته في رواية (العيب) على قمة عالية من خلال

تمسكها بالقيم والمبادئ ، ثم أخذت تهوي بتخليها على قيمها ، فإنه عكس الوضع في رواية (الحرام) ، بدأ بالشخصية في الدرك الأسفل من هوة الحرام ثم بدأ يصعد بها على درجات التطهر والتفكير والندم حتى وصلت بعد ذلك إلى مقام عظيم بالنسبة لأهل التفتيش .

ويوسف إدريس شغوف بهذا (التناقض) أو الأسلوب فبرأيته وقصه وبالأخص عكس وضع الجماعة مع الشخصية ، فهما دائما على طرفي نقيض جماعة المكتب التي تع التصاريع تحاول أن تجذب (سواء) لتسير في تيار قبول الرشوة ، وأهل التفتيش يبحثون عن تلك التي ارتكبت الجريمة التي روعت العزبة وما يجاورها من عزب .

وتبدأ الرواية حينما عثر الخفير (عبد المطلب محمد البحرأوي) على الجنين أسفل شجرة الجميز ذات صباح ، وأيقن الجميع بعد ذلك أنه ابن حرام ، والألمة ألقى هكذا؟! وكان لأهل التفتيش موقف متميز إزاء تلك الجريمة ، هذه المرقف مرعدة مراحل :

- ❖ إنكارها وعدم تصديقها .
- ❖ الاعتزأ بقرعنا .
- ❖ الحن عن الجانية .

ومعنى أن ينكر أهل التفتيش الواقعة . يدل دلالة واضحة على غرابتها وعدم إلف المجتمع لمثل هذا الحدث . هذا المجتمع الذي يعتد بتلك القيم المستمدة من الأرض ، والتي تحكمه من آلاف السنين ، فهي - الجريمة - شيء غير مألوف بالمرة ، مقحم على عقل تلك الجماعة ، حتى (فكري أفندي) المأمور لم يصدق وجود مثل تلك الجريمة . وفي هذا المكان بالذات ، من خلال سورليج بدوريسه ،
برين ص ١١٤ :

(ترى أيهن هي التي فعلت هذه الفعلة ؟ وترى كيف فعلتها ؟ فكري أفندي طالما سمع في القصص والحواديت عن أولاد الحرام وأحياناً كانت تلغفه فضائح مثل هذه كأخبار ليست إلاً عن أناس لا يعرفهم ولا يدري أشكالهم ولا ماذا يكونون وفي أعماق أغوارده . وحتى لو كان قرأ الخبر في حريدة المقطم نفسها التي يؤمن بكل كلمة تقولها ، فإنه كان يجد نفسه لا يكاد يصدق الخبر ، لا يكاد يصدق أن أحداثاً كبيرة شنعاء حراماً مثل هتك العرض أو الحمل سفاحا ممكن أن تحدث فعلا) .

في المجتمعات الفقيرة التي تعاني من قسوة واقعها المرير ، ولا تملك شيئاً لتقف به أمام أنياب وأطافر ذلك الواقع ن يكون تقديرها للقيم تقديراً عظيمًا فهي - القيم - الحصن الذي يعتصم به الأفراد من أن تنتهك آدميتهم . فلا مال ولا سلطان ولا نفوذ ، والحامي الوحيد هي القيمة . والارتفاع بها وإعطائها نوعاً من السلطان والنفوذ يحمي الآخرين منك ، ويحميك من الآخرين ، ولا يقلب هذا المجتمع رأساً على عقب من أن يُرى جدران القيم مصدوعاً ذات صباح ، وتبدأ سهام الشك الحادة وطلقات الاتهام المدوية ن نصيب كل إنسان . وكل فرد يريد أن يحترق الآخرين ، ليصل إلى أعماق أدمغتهم وصمم أنسجهم ليبرى ويقيم شكه

واتهامه على أساس . وكان الغرابوة مستهدفين للاتهام والشك ولم يكن هناك أفضل من هذا (الاستهداف) ليعري القاص واقع الغرابوة بكل عمق وجراءة تعرية لا تدع خافية إلا وعرضتها للظهور المبين .

ورفض تصديق هذه الجريمة يخفي وراءه رصيذاً هائلاً من القيم التي تحكم المجتمع . ليس فقط تمنع حدوث الحرام ، بل تمنع الذهن أن يفكر في احتمالية وقوعه . حتى ولو وقع فموقف المجتمع منها يمنع أن تظهر إلى الوجود الاجتماعي وتعلن على الملأ . فالمجتمع فيإنكاره هذا يدفع الفاعل إلى الاستتار بأي سبيل من السبل .

أما ما حدث ذلك الصاح تحت شجرة الجمبر فهو يركز على أمرين :

الأول : وجود الحرام .

الثاني : هذا الوحد معلن عنه ويتحدى إنكار الجميع .

فالمقولة التي تقول : (إذا ألسنر فأسنروا) تغلف موقف المجتمع من مثل تلك الأمور . فهو ينكر وجودها ، أما إذا حدثت ووقعت فيجب ان نخفي ولا يعلن عنها لأن هذا الإعلان يخدش سلطة ونفوذ قيم المجتمع . فلتحدث ، ولكن لا الفرد ولا المجتمع يعترف بها ؛ لأن الاعتراف مرحلة تالية عن الإعلان . مثل الرشوة في قصة (العيب) فالرشوة موجودة ولكن جماعة المكتب نراطنوا على إخفائها عن العين ، لأن المجتمع وقيمته ينكرونها ، هذا الإنكار أثر على الفرد وجعله يمارسها في نفس الوقت الذي يعتقد بحرمانيتها ، ولكن من قال أن ما يرتكبه رشوة ؟ ليس رشوة - في رأيهم - فالرشوة هي التي يضطربها القانون . ويطلق عليها هذا

الاسم . أما ما يمارسه (الجندي) والآخرين . فليس يرشوة لأن القانون لم يضغطهم متلسين .

فهاك مسويان للقيم :

المسوي الأول : أن يقر المجتمع قيمة . ويمنع أن تنتهك وبالتالي الإعلام عن الانتهاك ممنوع . وإن حدث فهو يقابل بالاستهجان .

المسوي الثاني : أن يقر المجتمع قيمة الأستطيع أن يحميها من أن تنتهك . ولكن غاية ما يستطيعه منع المجاهرة بالانتهاك .

والضابط للمستوي الأول هو القابون .

أما الضابط للمستوي الثاني فهو العرف .

ولكن قد تنتهك قيمة في المستوى الأول ويعلم عنها أيضا . (١٤) (الحرام إذن موجود لدى الناس أحيانا لا يستطيعون إخفائه ولكنه أحيانا يهزمهم وينتصر على رغبتهم في إخفائه يلثمهم متلورا في لقيط مسجى أو في بطن منفوخ . الحرام الذي كنت تسمع عنه يا تكري أفندي ولا تصدقه موجود وأمامك الفرصة لترى فاعلته كما رأيتَه) .

والرواية من ناحية حوادثها ندور حول ثلاثة محاور:

المحور الأول : موقف أهل التفتيش من الحرام ، وإنكارهم له ، ثم بحثهم عن الفاعلة ومحاولتهم إلقاء التهمة على الغرابوة لينفخوا عن أنفسهم التهمة .

المحور الثاني : إلقاء الضوء على حياة (عزيزة) وواقعها المرير . من زوج مريض مقعد وأولاده والحمل سفاحا من محمد بن قمرين وسفرها مع عمال الترحيلة ثم وضعها للجنين وقتله ومعرفة أهل التفتيش بحكاية (عزيزة) .

المحور الثالث : موقف أهل التفتيش من الغرابوة بصفة عامة ومن عزيزة بصفة خاصة ، وما طرأ من تغيير . من إزالة العداة ، وحل محل الرثاء والإشفاق الذي جر إلى التقارب بينهما ، وزالت تلك الصورة المقرزة والمزيرة للغرابوة وبدأ أهل التفتيش ينظرون إليهم نظرتهم إلى أنفسهم ، وأنهم آدميون من لحم ودم ، فما هي إلا الظروف والواقع المر الذي دفعهم إلى المجئ إلى التفتيش سعيا على الخبز الجاف والنزر اليسير من الرزق .

المحور الأول :

موقف أهل التفتيش من الواقعة غريب كل الغرابة . فهم لا ينظرون إلى الحرام نظرة خارجية منعزلة عنهم . ولكن ينظرون إلى دائرة الحرام وهم داخلها وكأن الواقعة وقعت داخل بيوتهم . ومرتكبة الجرم هي الزوجة أو الأخت أو الابنة وهم إذ ينكرونه لا ينكرونه على الفاعل المجهول ، ولكن ينكرونه أن يصدر من بيوتهم فقد نصرت (عبد المطلب) أن العالة زوجته مع اسحالة وقرع هذا . (١٧) .

(غير أن عبد المطلب لم يجر . بل وجد نفسه بعد ثوان يقهقه قهقهة عالية أعلى من أية قهقهة أخرى أطلقها في حياته ، إذ كان يضحك على نفسه فقد أدرك بطريقة ما أن ما أمامه ليس عفريتاً أو شيطاناً من هذا القبيل ولكنه رضيع ابن حرام على وجه الدقة . وما كاد يتدبر هذا حتى قهقهه فقد تصور لأمر ما أيضاً أن الجنب الذي يراد الآن هو نردة الليلة الماضية التي قضاها مع زوجته وولده بعد أن غادرها ليستحم في التربة ويتطير ثم ألقته به في الطريق) .

ولأن الكل ينظرون إلى الواقعة تلك النظرة الدائبة . فالجميع أهمه البحث والعتور على العالة . ليس لمعاقتنا أو لشيء من هذا القبيل . وإسأل ندرئة أهل بيته فعدم العتور على العالة يجعل كل فتاة وكل امرأة هدفاً للاتهام . وبدأ البحث المسعور عن العالة . وألقى أهل التفتيش التهمة على الغرابوة . وتزعمهم في هذا (فكري أفندي) المأمور . فالواقعة عريسة . إذن العالة عريسة أيضاً . وليس من غريب إلا الغرابوة . (١٧) (وأسار فكري أندري فحاة الخيرات التي كانت معه أسار إلى العباء الكائن خلف الاصطبلات . وقال :

- لازم واحدة من دول .

وتطلعت العيون والقلوب إلى حيث يشير وجاء الجواب من أكثر الواقفين، وكأنه
فرحة البراءة :

- هم ما فيش غيرهم وبدي عايزة كلام ، ودول غرابوة ولاد كلب) .

واستراح أهل التفتيش لاتهام الغرابوة ، وان كانت فكرة اتهام الغرابوة
لم تنل من اهتمام (فكري أفندي) الكثير ، فهو لا ينظر إليهم نظرة آدمية بالمرة
فهم - في نظره - كائنات غريبة لا تمت بصلة للآدميين ، فهم لا يستطيعون أن يخطئوا
كما يخطأ الأعمى . (١٣٥) ، تعود فكري أفندي أن يراهم هكذا وهو صحيح
قد افترض أن الفاعلة منهم . قال هذا للناس وذهب بنفسه وبحث خلف الإصطبل
ولكنه كان يفعل هذا وكأنه يفعله من وراء عقله . فالواقع أنه بينه وبين نفسه
لم يكن ليستطيع أن يتصور أن بين هذا القطيع البشري امرأة جديرة بصفة الأنثى .
كان متأكدًا أن الفاعلة منهم ومع هذا لم يكن ليصدق أن من الممكن أن توجد
بين هذه المجموعة امرأة أو بنت تحمل وتلد حلالا كان أم لقيطا ، لم يكن ليصدق
وكان التي ولدت اللقيط لم تكن امرأة بل كانت رجلا ولم يسترح عقل فكري أفندي
أبدا لهذا التصور فقد كان من العسير عليه أن يغير نظرتة إلى الترحيلة في لحظة
وكان من الصعب أن يستحيل النفر منهم في خاطره إلى امرأة أو إلى بنت تنام مع
الرجال وتحمل وتنجب أطفالا ، ولكن فكري أفندي كان من الصنف الذي لم يتعود
قلقلة الحقائق في رأسه كثيرا قبل أن يصدقها).

ولم يسفر البحث عن شيء . فقد خرجت نساء وبنات الغرابوة بريئات من هذا الفحص والكشف . وإن كان الأمر قد انتهى من الغرابوة . فقد ارتد ثانيا مع أهل التفتيش . ومع شكهم في أنفسهم زاد إصرارهم على معرفة الفاعلة . (٥٤) :
 (أما أهل التفتيش وأناسه وقاطنوه . فالمسألة عندهم لم تمر هكذا بسهولة . وكأنك القيت بحجر ضخم في ماء راكد آسن بدأت الاتهامات والشكوك تنهال من كل صوب . حتى لم تسلم واحدة من نساء العزبة الكبيرة من الشك مع علمهم التام أنهم جميعا بريئات ولكن لا بد لكل خطيئة من خاطئة ولكل جريمة من فاعلة والجريمة قد عرفت ن ترى ومن تكون الفاعلة ؟؟) .

لم يسلم أحد من النك ، حتى (مسيحة) أفندي الباش كاتب رداً بشك في اسنه (لدا) التي نرى تماثلا فنيات ونساء العزبة . (٥٥) : (بل أكثر من هذا بدأ الشك يزحف من بيوت الفلاحين المنخفضة إلى بيوت الفلاحين العالية . فبدأ العار يلعب في عب مسيحة أفندي الباش كاتب . وبدأ يخاف أن يكون المحطور قد وقع والحقيقة أنه كان خائفا دائما أن يقع المحطور ن بل أكثر من هذا هو دائم الخوف من المحطور وغير المحطور) .

فهو يعرف بتلك العلاقة التي تربط ابنته بصفوت ابن المأمور . ويعرف بحكاية الخطابات التي يحملها (محبوب) النوسطحي من والى لندا وصفوت ولا شيء في هذا . لأن هذا يتم على مسععه وعلمه وطالما يحدث هذا في العلن فلا خوف . الخوف أن يكون حدث شيء في الظلام . وفي الظلام لا يتورع الإنسان أن يرتكب أكبر الكبائر . أما في العلن فيور على رقائه من المجتمع . (٦٥) .

(الشك لم يكن مسيحة أفندي قد أحسه أبدا إلا تجاه الآخرين تجاه
الفلاحين والمأمير والإدارة وكل الناس ، لم يكن أبدا قد أحسه تجاه نفسه أو من
في حكم نفسه تجاه عائلته ...تجاه ابنته لنده بالذات . حياتها علنية أمامه وأمام
أمها وأمام الناس وحتى إشاعة رسائل العيون والنظرات والإشارات بينها وبين
صفوت تكاد تكون علنية هي الأخرى . وحياتها العلنية هذه هي كل حياتها
فهل من الممكن أن تكون لها حياة أخرى ، حياة تزاولها مع صفوت ابن المأمور
في الظلام) .

وفيما عدى مسيحة أفندي بقف أهل النفيس عاجزين عن معرفة العاعلة ، وهذا
الموقف يجعل كل امرأة هدفا ، (٩٠) : (وطالما هي مجهولة فأي اتهام صحيح ، وأي
إشاعة قد تكون هي الحقيقة والإشاعات كثيرة والألسنة في التفتيش لا تهدأ وواضح
أن الأمر سيظل هكذا إلى أن تنجلي الحقيقة) .

المحور الثاني :

وتحلت الحفيظة عن (عزيزة) وعرف فكري أفندي بأمرها أثناء مروره على الأرض وكان الرئيس (عرفة) قد أراحها من العمل رافة بها مع احتساب يوميتها ، وعهد بامرأة

أن تجلس معها تحت ظليلة بين أعواد النيل المزروعة حول تربية القطن وحينما غضب المأمور من تصرف الرئيس (عرفة) سر تصرفه بأن (١٠٠) : (عزيزة أم اللقيط المقتول ، وإنهم حين عرفوا هذا تستروا عليها فهي ولية ولنا ولاية وحين أصابتها الحمى رأوا أن يرقدوها في الغيط تحت ظليلة لكي يستمر أجزها ساريا ، فهي غلبانة آخر غلب وتنفق على زوجها المريض وأولادها الثلاثة منه) .

وحينما رأى المأمور عزيزة والمرص ينهش في جسدها والحمى تطوق جسدها الناحل رثى لها وتغاضى عن احتساب يوميتها وهي نائمة . موقف غريب حقا يفعه فكري أفندي ومن قبله الرئيس عرفة بدلا من أن يستمطر اللعنات فوق رأس أجداد وأداء عزيزة يكونان أول المساعدين والمشفقين عليها ، وهي في محنتها ...زوج تعبد عاجز عن شئئ ، توفير الخبز لها وأولادها ، وعن القيام بواحه الروحي ، ذلك هو قدر عريرة ، فهل تستطيع مواجهة قدرها ؟

القاص لم يترك لها حرية الاختيار بين أن تواحه قدرها أو تنكص ، وأنى عند المنطقة التي تستطيع أن ترى بوضوح حقيقة عزيزة وبتراها بترا ، فلم يضع عريرة بين طريقين ولم يترك لها حرية الاختيار . بل وضعها على شفا جرف حيا في يوم عاصف مستمر . فكان لا يبد من السقوط في الهاوية ، وترك سقوطها علامات

استفهام بدون إجابة . فمنذ البداية قد اتضح الطريق أمامها نحو الهاوية السحيقة فحينما ذهبت إلى أرض محمد بن قمرين للبحث عن جذور البطاطا تلبية لرغبة زوجها عبد الله أخذ منها محمد الفأس ، هنا بدأت خطوات المأساة ترتسم في وعي عزيزة ، فقد اشتهدت - وهي الأنتى - الذكر . وبذلك أكملت خيط السقطة في حبال عريّة . (١١١) ، (وخلص جلبابه وأخذ الفأس منها وتلفت حوله ثم انتقى مكانا ما لبث أن راح ينهال بالفأس عليه وعزيزة قد جلست غير بعيد ترقبه وتقارن بين حفرها وحفره ، والفأس في يدها هي أقوى منها وأثقل والفأس في يده هو القابض عليها هو المتحكم فيها هو الرجل ، هو الرجل الذي يذكرها بعدد الله حين كان يعمل ، وتصنع له تلك العضلات الأخرى في بطن نراعه ويلهث ليس لهث المتعب ولكنه لهث الرجل حين يعمل ، لهث منتظم قوي وقور) .

لقد تفتحت مسام كبان الأنتى فيها . العطش للرجل في صورة (محمد بن قمرين) وهو يبحث لها عن جذور البطاطا حتى أن ما حدث بعد ذلك يعد غريبا وغير مسائر لمنطق الأحداث ولكن الأمر مع عزيزة وما كانت تشعر به وتفكر فيه منطقي للغاية . وإن عدم حدوث ما حدث في تلك اللحظة لا يمنع حدوثه في لحظة أخرى ، وعلام حدثه من (محمد بن قمرين) لا يسعد حدثه من عريّة ، (١١٢) : (والواقع أنها لم تتبين تماما ما حدث بعد هذا . الأمور حدثت بطريقة أسرع من ان تدركها أو تتلافها . ما كادت تحاول أن تقوم حتى كان محمد إلى جوارها في الحفرة يساعدها . مرة واحدة وجدت نفسها في حضنه وقد أطبق عليها بذراعيه ليرفعها وهي وإن كانت قد ارتعشت حين أحست بنفسها في حضن رجل غريب إلا أن الرجل الغريب لم يكن سوى محمد الكشر الذي لا يتسرب إليه الشك .

ولكن الشك بدأ يتسرب إليها حين لم يرفعها ولم يدعها ترفع نفسها . وما كاد الشك يتسرب إليها حتى كان قد أصبح حقيقة – روعت أولا ولكنها استجمعت نفسها ودفعته وناضلت ولكنها كانت ترى أن نضالها لا فائدة منه ، بل ليست تدري على وجه الدقة سر هذا الانهيار الذي أصابها حين أصبحت في حضنه تريد أن تقاوم ولكنها لا تستطيع ، تستميت ولكنها يائسة تصرح فيجتمع الناس وتصبح فضيحة ومضغة في الأفواه ؟

تسكت تعضه ؟ حتى ملابسها التي لا تحتكم على غيرها مزقتها . كل ما حدث أنها طلقت ثنن مذهولة مرعوبة حتى قام وشتمته ولكن ماذا تفيد الشتائم . ولم يقل هو حرفا ، فقط ظل ينظر هنا وهناك ، الغبط خال تماما ، والبهايم والناس تروح من بعيد وعاد إليها ، وهذه المرة كان يمكن أن تقوم وتحري وتضربه بالعأس ، إن اضطرت ، ولكنها لم تفعل – سكتت وطلبت ثنن أنيس المظلوم الذي لا يخلي نفسه من مسئولية طلمه) .

وكانها كانت جوعي ، ورأت طعاما ليس بطعامها ، فلم تحتمل الأم الجوع والأم الحرمان ، فمدت يدها بكل حرية واختيار لتأخذه ، ولكن لم يكن بديل عن ذلك عندما جعلت لغرائزها هي الحكم والمتصرف فهي لحظات مرت بها لم يرفعها سوى الاستسلام والخضوع ، ولكنه الاستسلام الإرادي والخضوع المتمتع بالنسبة لها وهناك الجزاء الوفاق ، فإن لم نستطع خمل قدرها فلنأخذ ، قدرنا أفسر . وأمر وأسق (١١٤) : (أقطع ما في الأمر كان عند الله . عند الله لم يقربها من عمر انتها زبيدة ، والناس تعلم هذا ، فماذا يقول وماذا يقول الناس ؟ هو لن يقتلها فهو عاجز عن

قتلها ، والناس لن يقتلوهها ، فهم لن يستطيعوا قتلها ، ولكن القتل عندها أهون من أن يعرف عبد الله ويعرف الناس) .

خطأ مصدره قسوة الواقع على الإنسان ، وعدم قدرته على تحمل هذا الواقع فهي لحظة يحاول الإنسان فيها أن يوافق بين ضعفه وقسوة الواقع . هذا التوافق القائم على التعارض هو الخطأ ، فلا توافق بين الواقع وضعف الإنسان ، فهذان قطبان متعارضان الخط الواصل بينهما هو الألم ، ولا توافق بين القطبان ، وإن حدث فهو الخطأ - كما قلنا - خطأ مصدره جهل الإنسان البسيط بحقيقته وضاءته ، جهله بقسوة الواقع الذي يعيشه ، هذا الجهل يدفعه إلى أن يرسم خط أمل في أن يتصالح والواقع ، ولم يدرك أن في اللحظة التي يفعل فيها ذلك ، يكون قد وقع في شرك الخطأ ، وهذا لن يخفف من قسوة الواقع بل يزيده .

وفي لحظة التنوير التي مرت بها عزيزة ن أدركت سبب سقطتها بكل وضوح وجلاء . وذلك حينما عجزت في التخلص من الجنين ، وكانت على وشك أن تفضع بين عمال الترحيلة ، وهي بعيدة عن روحها وأولادها وولدها ، (١١٨) : (وكل هذا من أجل جدر بطاطا ، لا ، كل هذا لأنها لم تقاوم لحظة تلك اللحظة ، التي صاحبته سبعة أشهر تطاردها كاللعنة المقيمة لماذا تركته يفعل بها ما فعل . تقول لنفسها أنها لم ترص ، ولكنها ترد وتقول : ولكني لم أرفض فليلعني الله في كل كتاب أنزل لأني لم أرفض . تضرب رأسيا في الحائط وتقول ، كنت عارفة أنه حرام وعيب ولم تقاوميه كما يجب . لم تصرخي وقلت الفضيحة وما قد أتت الفضيحة الكبرى انفضحي إذن يا عزيزة واشبعي فضيحة فلولا أنك ضعفت لحظة لما حدث ما حدث . لحظة ضعف واحدة منها ، هي التي قاومت طبيعتها حين رقد عبد الله

رقدته التي لم يقم منها ، قاومت اللبالي التي كانت تريده فيها ولا تستطيع ، أ يكون هذا هو السبب في أنها ضعفت تلك اللحظة التي أخذها فيها محمد بن قمرين) .

الصراع المعكوس :

فإذا كان الصراع عادة يكون بين اختبارين ، ويكون الخف من نتيجة الاختيار ، فلم يكن هنا أي خيار ، وبالتالي لم يكن شمة خوف ، فالصراع المعكوس هنا ألغى حرية الاختيار ، وألغى كذلك الخوف الذي يظهر طبيعة الشخصية فالصراع ما قائم على مقولة (لم حدث ما حدث ؟) وبدل من حرية الاختيار كان التسليم لما حدث ، وبدلاً من الخوف من النتيجة ، كان شمة الندم على ما حدث فالضحية هنا - عزيزة- لا تلك تغيير شيء ، فلم يستيقظ وعيها على وجودها إلا وقد شكل على تلك الصورة ، التي تدفعها إلى تدمير وتحطيم هذا الوجود ، (فهي لم ترض ، وكذلك لم ترفض) فلنكن الإرادة بيدها من أجل التخلص من هذا الوجود فسعت سعياً إلى إغراق نفسها في ماء الخليج .

والإدراك هنا أو لحظة التنوير التي مرت بها الشخصية ، أتت كالفيض الفجائي بدون إرهابات ، فإذا كانت الشخصية مسطحة تتقبل تأثيرات الواقع الخارجي بدون أي مقاومة فلا معرفتها بأن ما فعلته حرام دفعتها للمقاومة وحوفها لم يدفعها للمقاومة ، وحاجتها كأنثى لم تقاومها ، ونتيجة لهذا الوجود السلبي الخاضع المستسلم أثمر شمة الحرام ، فلحظة الوعي بكل هذا كانت كرد فعل تبدأ السعي نحو التخلص من هذا الوجود عقاباً له عن تلك الثمرة أو النتبحة المعرضة للقيم وللشعر ، أو لأنه أثبت عدم صالحته للدقاء ، وليس هذا الحكم صادراً

من الخارج ، بل هو حكم داخلي صادر من أعماق الوجود ، وتلك لحظة يصل فيها الوعي إلى قمته . أن يستصدر الوجود أو الإنسان من داخله حكماً بالإعدام على وجوده . ويسعى إلى تنفيذ هذا الحكم ، وهذا يفسر سعي عزيزة المتكرر إلى إلقاء نفسها في الخليج ، (١٥٩) ، (وأسلم التشنج عزيزة إلى نوبات هلع مفاجئ إذ بدأت تقوم بغتة من نومتها صارخة وتطلق جارية إلى الخليج القريب وتقف بنفسها فيه بملابسها وكأنها تريد غطفاء نار مشتعلة فيها) .

سعي دؤب إلى تدمير الذات ن حينما لا يجد الموجود إلا ذاته الأثمة فيستدير إليها بكل قوة وعنف ، انتقاماً من الذات المذنبية ، وفي نفس الوقت تكفيراً عن الأثر . (١٦٣) ، (إذا أفاق من غيبوبتها لا تكاد تفتح عينيها وتقول لها أم الحسن : أزيك يا حتي دلوقتي حتى تدب على صدرها بكلتا يديها وتقول : يا لهوي . ثم تأخذ في لحم خدودها وتمزيق ثيابها ولحمها بأظفارها رغم كل مجهودات جارتها ومن يتصادف مروره أو وجوده في محاولة شل حركتها وتكتيف يديها فلا تزيدا محاولات إيقافها إلا ثورة وهياجاً ولا تكف عن تمزيق نفسها إلا حين تهوي مرة أخرى في سراديب الغيبوية) .

وجود تدنس وفسد ، ولا طريق إلا لإعدامه ، وأي محاولة لمنع من تنفيذ هذا الحكم هو تعضيد لهذا الفساد . وفي نفس الوقت يقابل بمقاومة شديدة من قتل الوجود ، وإذا كانت عزيزة تشعر بعملها بأنه ورم خبيث يؤرقها ليلاً ونهاراً فقد سعت منذ البداية إلى التخلص من ذلك الورم الخبيث وعجزت وانتصر عليها

واستمد ذلك الورم الخبيث كيانه من جسدها ، وحينما أصبح في متناول يدها قتلته لأنه ينزل لها شينين :

أولاً : انه حرام في حد ذاته ، وهذا بعد عقاندي .

ثانياً : سب لها فضيحة بين عمال الترحيلة ، وهذا بعد اجتماعي .

وقد استراحت بعد أن تخلصت من هذا الوجود المادي المتمثل في الجنين وهي المرحلة التي نعقب النخلص من شيء شاق لاستئصال شيء أشق وأمر (١٢٢) : (واستيقظت مع الأنفاس في الفجر ، ومع شعاعات الشمس الأولى بدا لها أن الهم قد انزاح عن كاهلها إلى الأبد ، وأنها أصبحت طليقة حرة تخلصت دون أن يشمت فيها أحد أو يعيرها أحد من الورم الخبيث الذي كان يوردها حتفها زبدا لها الصاح جميلاً جداً ، وبدا لها أن كل شيء سوف يسير كما أرادت تماماً وكان الله معها) .

استراحت بعد الولادة ، تخلصت مما كان يعيش داخلها ويسمم وجودها ولعلقت أحشاؤها محتويات الورم ، تلك العملية أحدث أبعادا وتأثيرات أعمق وأشمل لدى عزيزة ، فهي وإن تخلصت منه وقتلته إلا أنها حملت حملاً آخر هو امتلاء كباثها بالدنب ، حمل آخر ، من نوع آخر ، وأصبحت حلى بالندم والحسرة والمرارة والعار ، وقد شعرت أنها بحاجة إلى ولادة من نوع آخر ، لتتخلص من هذا الحمل المختلف ، في المرة الأولى تخلصت من الجنين ، وهو الوجود الفعلي الذي استمد وجوده من الوجود الرئيسي ، أما في تلك المرة تريد أن تتخلص من الدنب ، لعلها تشعر بالراحة التي شعرت بها بعد عملية الولادة الأولى .

فذهبت إلى مكان الولادة الأولى على حافة الخليج . وتحت شجرة الجميز
ومسكت بفرع الصفصاف وتقمصت كل حركات ومشاعر الولادة الأولى ، وإذا
كانت عملية الولادة الأولى تمت في الخفاء وفي الظلام وبعيدا عن أعين الناس لأن
الحرام كان يتنفس ويتحرك ، فإن الولادة الثانية تمت في عز الطهر ، وعلى الملا؛
لأن تلك الولادة الرمزية نوع من التطهر والتكفير . وكل هذا يدفع الإنسان على
التسامي والعلو ، ولا بد أن يتم هذا في وضع النهار ، لأنه إعادة للوضع السليم
للشخصية بعد أن أخذت وضعاً شاذاً وخطأً وحراماً . (١٦٥) :

(وفي الظهر . في عز الظهر تلك الفترة التي تقف فيها الحياة تماماً ويثوب
الناس إلى غداء يسلمهم إلى غفوة لا يستيقظون منها إلا في طراوة العصر . في الظهر
فتحت عزيزة عينيها فجأة وكأنها لم تكن نائمة وانفجرت شفتاها وطلبت من ابن
الريس عرفة الصغير أن يذهب ويملا لها الكوز الفارغ في تلك اللحظة فوجئت أم
الحسن بعريزة تعتدل وتقفز جالسة ثم تطلق صرخة عالية مدوية ما لبثت أن
أعقبتها صرخات هائلات مدويات وقبل أن تستطع أم الحسن أن تدرك أو تعي
ما يحدث وقفت عزيزة وهدمت الطليلة وما لبثت أن انطلقت تجري ناحية الخليج
وتصرخ وبلا وعي تبعتها أم الحسن وهي تجري هي الأخرى وتصرخ وتستغيب
بالناس مخافة أن تكون عزيزة قد انتوت أن تلقي بنفسها في الخليج . كما كانت
تفعل . وعلى صرخاتها جاء الناس من كل مكان . من العزبة من الجرن . من فوق
ماكينه الدراس . جاءوا هالعين يرون ما هنالك . وقالت لهم أم الحسن :

ألقوها ح ترمي روحها في الخليج . وجرى الناس يحاولون منعها ولكنها
انهالت عليهم عضا ورفسا ونشب أظفارها بطريقة مجنونة متوحشة لم يملكوا معها

إلا التراجع . ولكنها لم تلق بنفسها في الخليج انطلقت تجري حتى وصلت إلى نفس المكان الذي وجدوا فيه اللقيط والذي كانت لا تزال فيه آثار الدماء السوداء الجافة) .

وبين دهشة المتفنين حولها وذهولهم جلست عزيزة القرفصاء على حافة الخليج وكأنها تنهياً للولادة وانطلقت من فمها صرخات متواليات وكأن الطلق اشتد عليها ثم بحثت بيدها حتى عثرت على عود الصفصاف الذي احترق نصفه والذي كان لا يزال في مكانه من الحافة وأطبقت عليه بأسنانها واتخذت هيأتها طابعا جنونيا مدعورا وهي تضغط على العود وتنشب أسنانها فيه . وطلبت تضغط بتوحش وتضغط وهي تدمدم بأنين محتس كاسر والدم يسيل من فمها وأسنانها هيليس العود وعيناها حمرتان متوهجتان وشعرها منكوش ن ويدها بعصران طيس الخليج فتحيلانه إلى تراب حاف وفحأة . وكأن شيئا طوق داخلها . نهاوت ممدودة على حافة الخليج) .

وبدك نخلصت عزيزة من وجودها . غراديا بعد أن اكتمل وعيها باستحالة الانسجام بينها وبين الوجود .

التعظيم الشخصي :

الحدث الرئيسي في الرواية (الحرام) ونظرة أهل التفتيش إليه ، و (عزيزة) مصدر ذلك الحدث والفعل ، إلا أننا لم نر عزيزة وأخذت الشخصية صاحبة الحدث الرئيسي وما ألقى على حياتها قليلاً جداً من مساحة الرواية . ولا ينحصر ما يتطلع إليه القارئ لمعرفة الشخصية ، ومع التعظيم الذي تعمد القاص وفرضه على

الشخصية ووضعها في منطقة الظل ، إلا أنه استطاع أن يخلق التعاطف الحاد بينها وبين من حولها حتى بينها وبين القارئ . هذا التعاطف لم ينشأ إلا من خلال عملية التسامي والتكفير والتطهير التي بدأت (عزيزة) تدخل في خضمها بعدما ألمت بها حمى النفاس ، ومع ذلك يبقى الظلم الواقع على (عزيزة) ليس من الواقع فحسب ولكن أيضا من القاص ، وكأنه كان يشعر هو الآخر بالحرج والمضيق أن يتحدث عن صاحبة تلك الجريمة .

أو أن الحدث الذي قامت به عزيزة يعدل أحداث كل شخصيات الرواية ربما ، ولا نريد أن نجزم بشيء ، لأن النص الأدبي – كما يقولون – حمال أوجه ولا نريد أن نقف بالنص القصصي على رأي واحد .

المحور الثالث :

كان سعي أهل التفتيش لمعرفة العاعلة يعتمد على حاجة كل منهم إلى تبرئة نفسه . ولم تكن فرحة أهل النفس معرفتهم العاعل إلا كفرحة المنهر حسما يسمع إعلان تبرئته . (١٢٧) فلم يكن فيه حلا للغز الذي حيرهم فقط ، ولكن الحل أيضا على وجه مرض ، الحل كما أرادوه تماما وخافوا ألا يكون . حل بردت به صدورهم وهجعت به حواطرهم وأعاد لهم الثقة في أنفسهم وأخلاقهم ونسائهم وقيمهم تلك الثقة التي طللت حائرة مزعزعة تحوم حولها الشكوك وتتطاول عليها الألسن منذ اللحظة التي عثر فيها عبد المطلب على اللقيط) .

وإذا كان الرحلة لا يُقالون بأدب اثنام من ناحية أهل النفس ولا يعيروهم أدب أكثر ، فبعد الحادثة أصبح كل اثنام أهل النفس نصا على الرحلة . (١٢٨) ، ذلك هو ما حدث فما كاد أهل العزبة يطمنون على سلامة أنفسهم بدأوا يستديرون للغرابوة الذين كانوا يتحاملون وجودهم إلى تلك اللحظة ويعيشون على أرض التفتيش يكاد لا يحس بهم إنسان ، بدأوا كلما داع حبر عزيزة ولقيطها وحكايتها يصحون محط أنظار الناس ومحل اهتمامهم ولكن أي اهتمام ؟) .

كان اهتمام متوبا بالاشمئزاز والقرف ، فهم وإن اهتموا بهم إلا أنه اهتمام بشيء نافع حقيق لا قيمة له والاهتمام هنا يزيد ويضاعف من حقارة وتفاحة الشيء فهم - أهل التفتيش - نظروا إلى الرحيلة وهم موصومون بالعار ، لم يخرج عذبة من صوفهم ؟ (١٢٨) . (الفلاحين الكبار والمزارعون لم يفعل الخبر أكثر من أن هيج كامن تقرزهم من الغرابوة واشمئزارهم منهم ، فأصبح الحديث عنهم يسفه

أو يتنعه سبل من الشتائم والبصقات كأن الترحيلة في نظرهم حثالة آدمية تهبط على تفتيشهم مرة أو مرتين في العام كالوباء الذي لا مفر منه فما بلك حين يكتشفون أن تلك الحثالة قد صدر عنها شيء حرام كهذا الذي حدث منذ أيام وأنها حاولت إخفاءه وإصاقه بأهل بأهل العزبة . الترحيلة أنفسهم كانوا يكادون يصبحون شيئاً حراماً . وكأن الناس جميعاً مخلوقات حلال وهم وحدهم مخلوقات حرام ، أي بشاعة يصبح عليها الحرام إذا ارتكب حراماً ؟ نساء الفلاحين هن الأخريات كان لهن مثل آراء أزواجهن وآبائهن بل أعرب من هذا كن أكثر حماساً وأكثر تحاملاً وكأنهن يستكثرون على الترحيلة أن تحمل إحداهن مثلما يحملن وأن تلد مثلما يلدن ولو كان حملها وولادتها حرام في حرام) .

وأعلى القاص لهذا الحدث أكثر من بعد من خلال استعراض وجهات نظر أكثر من شخصية منفردة . وفي النهاية رؤية الجماعة لذلك الحدث ن فنظرة فكري أفندي لعزيزة ملؤها الإشفاق والرثاء للضعف والمهانة الإنسانية المتمثلة في عزيزة فقد تخيل أن عزيزة زوجته وأنه عبد الله زوجها المريض . (وفي إغفاءته رأى فكري أفندي نفسه نائماً مع عزيزة تحت الظليلة والأنفار كلهم يتفرجون عليه وعليها وكان زوجها بطلنه المنتفخ واقفاً ممسكاً خطاً مع الأنفار وكان هو الآخر يتفرج ولا يفعل شيئاً أكثر من أن يتل ، حرام عليك يا حضرة المأمور حرام عليك دي عيانة ... وأفانق فكري أفندي مختنقاً وكأنه يعاني كابوس) .

ويستخدم القاص هنا وجهة النظر ليرصد بكل دقة هذا التحول الذي سيحتاج أهل التفتيش من الكره والاشمئزاز إلى التعاطف ، ومن البعد إلى التقارب الذي يحدث بين الاثنين . ولم يكن القاص ليستطيع رصد هذا التغير في سلوك

الجماعة إلا بقننيه وجهة النظر تلك " إن إحدى خصائص هذه الرواية وغيرها من أعمال يوسف إدريس أنها ترى الحدث ورد الفعل لا من وجهة نظر فردية فحسب بل من وجهة نظر جماعية أيضا ، فخصمة المرأة المائسة المعذبة عزيزة بل حاة الرحيلة كلها ، لا ترى من وجهة نظر فكري أفندي أو غيره من أهل النعش فحسب ، بل ترى القرية كلها بأطفالها نرجالها ونسائها وهم ينحولون أمام عيوبها من احتقار وكره وغضب تجاه الرحيلة إلى التبرير والحب والنعاطف " (١)

وبدأ موقفهم من عزيزة يتغير تغيرا كاملا فبعد أن كانوا ينظرون إليها نظرتهم إلى شيء يدور في فلك الحرام . متخم بكل معاني العار والحر ، بدأوا يشفقون ويرثون لها ن بل امتدت أيديهم إلى عزيزة لمساعدتها . وانتقل موقفهم من عزيزة إلى الغرابة . ولكن هذا التغيير لم يحدث إلا عندما رأوا عزيزة في حضم سكرات المرص . وكان لحظات الضعف الإنساني تخمخ بين الإنسان والإنسان (١٥٨١) .

(غير أن عزيزة حين بدأت تخرف وتصرح صرخاتها المحمومة ويخف إليها بلدياتها يحادثونها ويصبرونها ويهددون عليها وكأنها واعية عاقلة مدركة لما تقول . حين بدأت تفعل هذا ن بدأ الجمود يدوب ، وبدأت ألسنة المتفرجين من أهل العزبة تنطلق وتتحدث مع الغرابة وتشارك بكلمة عطف أو بممصصة شفة ثم تجر الكلمة كلمات ويبدأ حديث بين الرجال والرجال . وبين النساء والنساء ولكن عزيزة بعد ثلاثة أيام من رقادها بدأت تتشنج يتخشب جسدها حتى يصعب جافا مشدودا كالعصا وتعض لسانها حتى تدميه وكان أهل العزبة حينئذ

١- (وجهة النظر في الرواية المصرية) د . إنجيل بطرس سمعان - مجلة فصول - المجلد الثاني - العدد الثاني لسنة ١٩٨٢ - صفحة (١١٤) .

لا يستطيعون أن يتمالكوا أنفسهم أمام منظرها فيسرعون مثلهم في هذا مثل بلدياتها الترحيلة ويتعاونون في فتح فمها وتديلج جسدها وتنشيقها بماء البصل) .

الشخصية المصرية والبعد الثالث :

ونج القاص هنا أن يرصد ويلتقط ملمحا من ملامح الشخصية المصرية في أعماق الريف المصري ، وهذا ملمح حضاري احتفظت به الشخصية المصرية في أحلك لحظاتها التاريخية . وهو - الملمح - من أخص خصوصيات الشخصية وهو أن يهتم الجميع لنجدة فرد من أفرادة متناسين ما بينهم من خلافات وأحقاد متناسين كل شيء ، إلا ما يدفعهم لنجدته ، وهو ما نسميه في الريف (بالواجب) فحينما رأي أهل التفتيش ما تعانیه عزيزة هموا لنجدتها والتحموا بالغرابوة فالشخصية في ذلك الزمان والمكان بسيطة جدا ، ولكن تلك البساطة تخفي تحتها كما هائلا من رصيد حضاري . الذي لا تظهره إلا الأزمة أو المواقف الصعبة . هذا الرصيد الحضاري ليس محصلة تجربة فردية في زمان محدد أو مكان معلوم ، وإنما محملة أجيال طويلة ، يعيش في ضمير الأمة ، فهو إحساس فطري يدفع صاحبه بدون تفكير وبدون وعي إلى أن يفعل هذا الفعل ، هذا الدافع والوازع الفطري هو الذي دفع أفراد أهل التفتيش وجماعته أن يغيروا مواقعهم من عزيزة والغرابوة واستطلاع القاص بذلك أن يحقق البعد الثالث كما يقول الدكتور ركي نجيب محمود " إن القاص في رحمة لأسخاصه إذا ما كشف خلال سلوك الأشخاص عن المفاتيح الدفينة لكل سلوك فإما يبلغ بهذا بعدا ثالثا ، وبذلك تتكامل حلقة الفن أبعاده الثلاثة ، فكترة من

حوادث أولاً ، وإطار نفسي يضمها في شخص واحد نايا ، وأساس أولي عمق نسبي عليه كل
توصيلات الحياة ثالثاً^(١) .

وهذا هو عماد العمل الأدبي الصادق ، أن يجلي القاص من خلال كم
الأحداث والمواقف جوهر الإنسان ، الذي يعيش في بيئته ويزيح ما ران على وجه من
غشاوة ، يكشف أصالة وعمق ووعي والسّمات الحضارية التي تميز الشخصية
المصرية عن بقية الشخصيات في أي مكان في العالم ، ولا تشغل القاص كثرة
الأحداث والمواقف على أن يردّها إلى مصدرها الرئيسي ومنبعها الأساسي .

" لأن الطويلة ليست بطويلة الأحداث ، فالأحداث ما أسهل أن بأنها على أيدي القصاص
والسعاء هذا أوداك من عامة الناس . وإما الموهبة الذرة بحق هي تلك التي نطق الأحداث بين
يديها بالأشوار النفسية والأعمال الحضارية التي نفترق إليها أبطال الروايسة والواقعة على
احداث مزايتها ، لا يفت حلزومهم عن حد التحليل العسي . وإما يجمع إليه المعد الحصارى
لسنة وبنى فريمه ولا ينكس الحاطب يتلا بين ذكر وجريكي في أظالمها وممر جمعها من سابة المنمع
وأحلاس الأرقية والسوانع لأنها تحس بكل له مبحه في النسرذ . ولا نحه الخاصة
في العوس^(٢) .

فعلاقة الإنسان المصري بغيره ليست علاقات جامدة ، وإها في تدب
مستمر وتغير ، من البعد إلى القرب ، من الكره إلى الحب ، ذلك لأنها موصولة بهذا
الجوهر الكامن في أعماقه إبراهيم ، وهذا الجوهر الإنساني يعرض سلطانه على تلك

^١ - نلعة الشفد - د ركي نجيب محمود - صفحة (١٠٥) .

^٢ - حوانب من قصايا الأمة العربية - د . حلمي على مرزوق - صفحة (٨٨) .

العلاقات ، ويملي عليها أحكامه ، وكلها أحكام شاخصة إلى تعضيد وتأکید صفة الإنسانية ، حيث كادت أن تنسى من كثرة ما مر بالإنسان من تجارب ومواقف مؤلة تنسي أول ما تنسيه تلك الصفة التي تحفظ عليه كيانه وكرامته ووجوده الإنساني ، وها قد جمع المصاب بين فئتين من الناس كان البعد والكره حجازا بينهما . فبعد موت عزيزة أسرع أهل العزبة نساؤهم ورجالهم لتعزية الترحيلة (١٦٨) : (أما رجال الترحيلة فقد جلسوا غير بعيد في مقدمة الجرن يتقبلون عزاء رجال التفتيش وقد اختلطت العمم بالعمم والجلاليب بالجلاليب ، فلم تعد تستطيع أن تميز الفلاح من الترحيلة ولا صاحب الماتم من المعزي بينما الشيع أبو إبراهيم الفقي قد احتل دكة النوارج الواقعة على رقية قمح نصف مدروس ومضى يتلو بصوته الأجنح المنحوح بعض ما تيسر من سورة النساء ، وشعاع الشمس يحمر ويغيب خلف جبل التبن الهائل المتخلف عن دراس المكنة) .

ويحرص المأمور بعد ذلك على أن تدفن عزيزة في بلدها ويدعو الأسطى عنده ليحمل عزيزة في اللوري ليذهب بها إلى بلدتها ، ويغادر جسمان عزيزة أرض التفتيش مشيعا بيبكاء ونهتهات النساء ونظرات وعبرات الرجال .

ولم تشغل كثرة تفاصيل الرواية القاص على أن ينتقي منها ما له دلالة ومعزى بعيدن وهو وإن كان حاضرا في كل وقت ومع كل حديث إلا أن هذا الحضور لم يفسد موضوعية الرواية ، فهو لم يقحم نفسه إقحاما ولكنه كان موحودا ليرشد الحدث القصصي من خلال وجهة نظره المتحانسة مع العمل الأدبي ككل .
نوظف الحدث تفاصيله الرقيقة الملموسة للكشف عن المساعر والأفكار والمواقف وجمع

الأعمال التي قام بها أهل التنقيح لمساعدة عبدة المسكينة والأحر الذي يدفع لها ويدفع لجارها التي تعني بنا في أثناء مرضها والماء الذي يوفره لسربنا والطعام الذي يرسلونه إليها وذلك المشهد المتعلق بخوار الخليج ولحظة الوداع الحزينة كلنا أدوات وأساليب (وجهة النظر) التي سرع لإدريس مثير في استخدامها^(١).

^١ - وجهة نظر في الرواية المصرية - د . إحليل بخرس سمعان - صفحة (١١٥)

الفصل الثالث العسكري الأسود

١- سحق الأدمية .

٢- تخريب الإنسان .

٣- سيكولوجية المعذب .

٤- لقاء النار .

٥- الصدع .

obeikandi.com

تكاد تجمع كل الأعمال الفنية على اختلاف أنواعها ومسمياتها على التأكيد على قيمة واحدة والإعلاء من شأنها ألا وهي قيمة الإنسان . بل كل نشاط فكري أو عملي لا يستهدف تلك القيمة فهو نشاط أجوف لا جدوى منه ، بل لا تقاس الحضارات البشرية إلا بهذا المقياس . فإذا كانت كل أنشطتها ومضامينها متفرعة من هذا الأصل فهي حضارة إنسانية قلبا وقالبا . أما إذا كانت تستبدل بتلك القيمة قيمة أخرى . فهي ليست بالحضارة الإنسانية . وأطلق عليه أي اسم من الأسماء ... حضارة المال ، حضارة المادة ، إلا أن تكون حضارة الإنسان .

سحق الأدمية :

ماذا يفعل الضرب التعذيب والسجن والتكليل بالإنسان ؟

هل يسبب له نوعا من الألم الجسدي فحسب ؟

وإذا كان يسبب له ألما جسيما . هل يترسب هذا الألم في عقل الإنسان فتجعل

كل تصرفاته تنسم بالخوف والتردد ؟

التعذيب الواقع على الإنسان يخرج من جنس الأدميين ليسلكه في جنس

آخر لا صلة بينه وبين الأدميين . فهو يهتك كل تلك الصلات والعلاقات التي تربطه

بصفة الأدمية ويمحو كل تلك السمات والملامح التي تسلكه في مسلكها .

وهذا ما وقع على (شوقي) الشخصية المحورية في الرواية . وأحداث الرواية

تدور في أربعينات القاهرة . وشعور بالضعة والضياع يجسم فوق صدور الشباب

المتقف . شباب الجامعات في تلك الفترة السوداء من تاريخ مصر . وعرض القاص

حياة (شوقي) على فترتين :

الأولى : قبل دخوله السجن وتعرضه لعذاب العسكري الأسود .

الثانية : بعد خروجه من السجن .

فقد كان شوقي من زعماء الحركة الطلابية في الجامعة ، وكان من الثائرين على الوضع الذي تعيش عليه البلاد ، وكان يؤمن بمجموعة من المبادئ يريد تحقيقها لتخليص البلاد مما تعانيه ، وربما هذا هو السبب الذي جمع تلك الشخصية بالناصر ، (١٢) .

(ربما السبب في الصداقة المهيمنة الكبيرة التي جمعتنا أننا كنا نؤمن رغم اختلاف طرقنا ووسائلنا - أن لنا رسالة واحدة نحن معوثو العنايه لتحقيقها وإنقاذ بلادنا وتغيير مصير شعبنا تغييراً جذرياً وإلى الأبد ، وهكذا بدأت واستمرت علاقتي بشوقي) .

فقد كان (شوقي) يحمل رسالة . أو هو يضع مصلحة بلاده في المقام الأول مثل كل شاب وطني مخلص يسعى نحو هدف يحقق لبلده الحرية والتخلص من كل أغلال الاحتلال والتخلف . وكانت لديه الإرادة والضمير . والفؤاد لحق ما يظلمه ، وما يصور إليه .

١٤١

(فقد كان (شوقي) يتمتع بطاقة إرادية هائلة . وكأنه ولد وهو يعرف بالضبط ما يريد ، ومتأكد أنه وأصل إليه لا محالة . وكان يبدو وكأن إرادته تلك ترسب إيمانه في قلبه طبقة فوق طبقة ، وكل يوم تزيد عمقا وتشعنا بطريقه فماذا معنا من أن يتزلزل إيمانه ذلك بإيمان جديد) .

إذن (شوقي) لديه كل مقومات الإنسان الذي وضع لنفسه هدفاً يعمل حاصداً لتحقيقه ، ولديه القوة والإرادة لتحقيق هذا الهدف ، وليس بالهدف الذي يتسم بالذاتية أو الأنانية ، وإنما هدف لمصلحة البلد أولاً وأخيراً .

تلك هي صفات (شوقي) قبل أن يدخل السجن ويتعرض لما تعرض له .

وبعد أن أخرج من السجن ، وعُين في المكتب الطلبي للمحافظة مع القاص اكتشف القاص هذا التغيير الذي قلب شخصية (شوقي) رأساً على عقب ، أما سبب هذا التغيير وما الذي حدث في السجن فيرجئه القاص إلى آخر القصة . فقد تغيرت نظرات (شوقي) عنها قبل أن يدخل السجن ، (وكان أول ما لاحظته أن نظره اكتسبت طابعاً آخر لم يكن لها كآن في عينه دائماً بريق يشع ويكسب ملامحه جاذبية خاصة ، جاذبية المؤمن بحقيقة تضيء نفسه ، وتفضح ملامحه الضوء الداخلي واشمه ويتركز النور في عينه ، وينقل للعالم صورة نفسه المؤمنة . ذلك البريق كان قد اختفى وكأنما اجثتت من جدوره ، ولم يبق لعينه اللعة التي تميز عيني كل كائن حي . كنت كلما نظرت في عينه أحس بإحساس غريب خاص يضايقي أي لا أستطيع إدراك كنهه ، وأني لي أن أعرف أن أستطيع أن أدرك كنه ذلك الإحساس إلا هناك وبعد أعوام طويلة في زمان ومكان كان مستحيلاً أن يحطرا على البال) .

ثم أدرك أن صوته قد تغير ، الكلمات خائفة ترتعش تحرص على ألا يحدث صوتاً حتى صوت نبرات الحروف وهو لا يرى إلا ما أمامه فقط وكان نظراته قد صبت صبا وكأنه لا يعيش إلا لنفسه ، فهو لا يريد إلا أن يرى موضع قدميه أمّا

ما حوله فهو لا يهتم بهم (ذلك الذي كان لا يهتم إلا بما حوله ، المتمرد الثائر أصبح كالحمل الوديع يمضغ العشب في صمت وسكون لا نهاية له) .

(ثم بدأت أعي أن صوت (شوقي) قد تغير فأصبح لا يتحدث إلا همسا همس مؤدب خافت كمن يتوقع دائما أن يرفض طلبه ...ثم هاتان النظارتان لا أقصد النظارات الطبية ، أقصد تلك التي تتركب للخيل لكي لا ترى إلا في اتجاه واحد هاتان النظارتان الخفيتان اللتان لا نجعلانه يرى إلا ما أمامه . وما أمامه فقط . أين هذا من (شوقي) المتلفت دائما حوله ، الباحث المنقب في كل شيء ، من أمير الدنيا والناس ، الغاضب الثائر إذا وقعت عينه على الخطأ ، المهدد بالويل والتغيير وإخضاعها لما يريد ؟) .

وبدأ الخوف يعيش داخله . وينسخ خبوطه السوداء على أفكاره وأفعاله يحاف من كل شيء : يواجهه . يصنع قوقعة يحيطها حول داته . فقد أصبح كائن رحو سلبت منه الإرادة . وكل ما يعطيه القوة لينحمل وجرده وسرياته هذا الوجود (٢١) (إذا كان أحوف ما يخافه أن تحل الكارثة مرة فيخطئ في حق لائحة من اللوائح أو قانون من القوانين ، هو الذي بدا عدوا لكل قانون أصبحت المسؤولية هي عدوه الوحيد اللدود يفعل المستحيل ليتجنبها . ومستعد أن يسير أميالاً إذا كان في السير ما يجنبه قفزة واحدة يتحمل فيها درهم مسؤولية ... إلى درجة كان يحيل فيها أحيانا أنه يود لو يشفى حسده ويشفى حتى يصح كائنا أثريا لا يتحمل مسؤولية إيجاد مكان له فوق سطح الأرض ، أو نظرة يلقيها عليه إنسان ومع هذا تعجب لتمسكه بالحياة ونومه إلى الدنيا بطريقة يكاد معيا أن يتلعها لو استطاع داخل جوفه) .

لقد أصبح كائننا معقدا لا يستجيب استجابات واقعية لمؤثرات العالم الخارجي ، وإنما استجابة خاضعة لنفس كائن حطمت داخله بوصلة الاتزان ومؤشر العقل ، ليحل محلها الخوف من كل شيء وعدم الأمان لكل شيء . (٤١) :

(وجوده انحصر كله وتآزر ليحقق هدفا واحدا . كيف يهرب من كل شيء حوله ، فالوقوف يعرضه لشيء لا يعلمه ولا يعرفه ، فلم يعد داخله ذلك (الكنترول) الذي يضبط ويحكم تصرفات وأفعال الإنسان ، إنما يريد أن يحقق كيانا ذاتيا خوفا من تحطيمه وهتكه . وكأنه حيوان هائم في غابة لا يريد أن يترك أثرا كي لا يكون دليلاً عليه أو مرشداً يقود الآخرين إليه ، إنه يهرب من أن يكون إنسانا وكل تصرفاته وأفكاره تتمركز في بؤرة واحدة هي كيف يحيى صفته الأدمية فهو يعيش متخفياً أو متنكراً لا يعيش نفسه ولا يحيى ذاته) .

(هناك حيث تدرك أن شوقي وإن ظل في ظاهرة بشرا ، فهو في حقيقته لم يعد يمت إلى البشر ولا إلى أنواع الادميين المتعارف عليها من عقلاء أو مجانين أو سوان . باستطاعتك أن تقول أنه خرج ليكون نوعاً جديداً قائماً بذاته . إذا قد خرج ليحيا بدافع جديد تماما على الجنس البشري ... فهو لا يحيا لتكاثر أو يبقى أو يتطور وإنما دافعه للحياة كان أن يهرب ويضر ، وكأنه لم يعد يرى في الجنس البشري كله سوى جن وعاريت همها أن تنقض عليه وتعقره وتفتك به هم جميعا شياطين . وهو وحده الإنسان ، أو هم جميعا بشر وهو وحده الشيطان الذي يعادونه ويتربصون به ولن يندءوا حتى يقضوا عليه) .

هذا الكائن الذي يزداد انعزالية عما حوله ، وجدار العربة والوحدة يزداد سمكا وارتفاعا ليسجنه عما حوله ، يعيش مأساة حادة ، فهو مجبر وهو يقف هذا الموقف الذي صهرته نار الخوف والرعب من الآخرين على أن يحيا معهم وبينهم (٤٢) : (ومأساته كان أن عليه أن يظل يحيا على ظهر الأرض مع هؤلاء الذين يخاف منكم ويرهنيهم عليه أن يعاملهم ويتصرفوا في أمره ويتصرف في أمورهم ويصادقهم ويؤاملهم . هو الذي ينتفض رعبا منهم) .

حركة مستمرة لا تكل نحو التقلص والتقوقع . والانحلال والذوبان . يخاف من ذاته من وجوده . أخشى ما يخشاه هو التواجد ، يريد أن يكون هلاميا ، كائن أثيري ، لا يراه أحد ، لا يشعر به أحد ، (٤٣) ، (ويسني حياته لا عن طريق أعمال يضعها فوق بعضها ليكون هربا شخصيا ولكنه ينجبها إلى أسفل... وحفرها تحت الأرض بجحور متشعبة ملتوية معقدة كلما أحس في حفر فيها بخطر واهروا وتطلق يكون ححرا آخر... إنه يعرفك ويقبم معك الصداقة أو الزمالة إمعانا في الترب منك ويحاذيك أطراف الحديث ليأثيك عن نفسه . وينافقك أو يصنع معك المعروف لكي يرشوك ويتزوج كي يهرب من مسئولية عدم الزواج ويعمل في قومسبون طبي المحافظة لكي يفر من السوليس والمناحت حتى ولو مكان العرار إلى قلب الدوليس) .

تخريب الإنسان :

ولكن ما الذي تعرض له (شوقي) في السجن ليجعله كائنا غربياً كل الغرابة ومنبت الصلة عنه عما كان قبل دخوله السجن، فالبشر يدخلون السجن ويخرجون منه كما دخلوا ، وإن أصابهم نوع من التغيير فهو تغيير لا يحيلهم أي كائنات غريبة هكذا .

فقد يتلقى الإنسان الضرب ، ولكنه لا يشعر به وإن شعر فهو شعور طفيف ولكن هذا إذا كان لديه حرية الرد أو حرية الدفاع عن النفس ، تلك الحرية تمثل خط دفاع داتي يحفظ على الإنسان كيانه ويحفظ عليه آدميته أن تسحق وكل ما يتعرض له يكون هين التأثير إذا كانت حريته موفورة له ، وكل شيء هين يكون له أضخم التأثير إذا كانت حريته مسلوقة فهو يتلقى ما يتلقاه وهو إنسان .

أما إذا كان مسلوب الحرية ، فهو ليس بإنسان وكل ما يتعرض له يؤكد على هذا المعنى ويزيد من خروجه من دائرة الإنسانية ومركز البشرية ، فكل ما يتعرض له من ضرب وتعذيب هو نوع من التخريب والتدمير لمقومات هذا الكائن الراقى انفجار داخلي حينما لا يجد الغضب والثورة قنوات ليخرج من ذات الإنسان ينفجر في الداخل ليهدم مراكز الإنسانية داخل الإنسان ولا يبقى إلا الشكل الخارجي للإنسان .

(٥٠) : بالاختصار أنت لا تشعر بالضرب حين تكون حرًا أن ترده . أنت تشعر به هناك حين يكون عليك فقط أن تتلقاه ولا حرية لك ولا حق ولا قدرة لديك على رده ... هناك تجرب الإحساس الحقيقي للضرب بألم الضرب لا مجرد الألم

الموضعي للضربة أو الألم العام الناتج عنها إنما بألم آخر محاسب أشبع ... أقوى من ألم الإهانة حين نحس أن كل ضربة توجه إلى جزء من جسدك توجه معها ضربة إلى كيانتك كله وإلى إحساسك وكرامتك كإنسان ضربة ألمها مبرح لأنها تصيب نفسك من الداخل إصابة مباشرة . لا يحجبها أو يخفف منها جلد أو عظام أو حرية أو حق الإنسان أن يتصرف كالإنسان ويرد . وهذه كلها جروح لو تعلمون عظيمة . أن حرية الإنسان ... حقه أن يرفض أو يقبل أو يرد الاعتداء جزء لا يتجزأ من حسده وكيانه ولحمه وجلده وأنسجته الواقية الحية وليست ملبسه أو جدران بيته التي تحفظ عليه ماء حياته كإنسان وتحميه وهي التي إذ انتزعت منه لا يموت كما يحدث للسلحفاء إذ أنتزع غطاؤها . لبيته كان يموت ولكنه يبقى إنسانا منزوع الحق في حماية نفسه والدفاع عنها فما بالك إذا كان يُرغم على أن ينتزع هو بنفسه هذا الغطاء وتجبره القوية الغاشمة على السكوت على تلقي الألم والسكوت . على التنازل عن إنسانيته وحتى عن خصائص الحيوان . حين يستحيل إلى كومة عارية من لحم الخائف مدعور لا تستطيع أن تعض أو ترفس ن عليها أن تتلقى الألم وتسكت عليه ن والسكوت على الألم أشد إيلاما من الألم من الألم نفسه خاصة إذا كنت أنت من تتولى إسكات نفسك ... هذا النوع من الضرب حين لا يبقى أمامك لكي تمنع أله وعاره إلا أن تحتمل وتصبره أو تقتل نفسك وتنتحر . عمل لا يستطيعه ويفقد عليه معظم الناس . حتى إذا قدروا فقا نون الحياة نفسه يرفضه ويمنعهم من إتيانه . إذ كيف يعقل وأنت في موقف تدافع فيه عن نفسك ووجودك أن تشرع في قتل نفسك ومحو وجودك ؟ بالعكس . إن أشبع ما في الأمر أنك لا تحتمل فقط وتصبر . ولكنك تزداد استمساكا بالحياة وتصل بك حلوة الروح إلى درجة مخجلة

في شدتها وقوتها وهكذا في مقابل ضربة هائلة الألم عارمة القسوة مهينة تتلقاها من الخارج تنهال عليك من داخلك ، ألف طلعة ألف إحساس مخجل مهين تمزق أحشاءك وتذيب كماء النار وروحك لأنك لا تحدث ولا تريد الموت ولا تزال حيا تتمسك ذليلا بالحياة) .

وأن يحتمل الإنسان الضرب أو يتلقاه هو نوع من الدفاع عن النفس وقوة هائلة وإرادة صلبة ن تلك التي تنبثق في نفس الإنسان حينما يتعرض للضرب والتعذيب . تلك القوة والإرادة هي دفاع داخلي لا إرادي لمقاومة الهجوم والاعتداء الخارجي الواقع على الإنسان . سمها حلوة الروح . حب الحياة والتمسك بها ولكنها لا يكتشفها الإنسان وأنه مزود بها إلا وقت انبثاقها . فهي كائنة لا تظهر إلا في هذا الوقت ، قوة الكائن الحي . وإرادة الحياة ... أقوى إرادة في الكون ، واقوي قوة نأخذ بنواصي الأحياء في هذا الكون .

وتلك القوة مصدر عذاب آخر للإنسان . إذ ما فائدة وما جدوى التمسك بتلك الحياة ، وأي نوع من تلك الحياة وداخل الإنسان يخرب ويقتل أتمن ما يملكه إحساسه بآدميته .

أمّا سوط العذاب الذي دمر وخرب (شوقي) فهو العسكري الأسود أو (عباس محمد الزنغلي) وهو شخصية قائمة بذاتها ويصلح أن يكون رمزا للقوة التي تستهدف في المقام الأول تدمير الإنسان . فعلاقة (شوقي) بعباس الزنغلي علاقة المعذب بمعذبه ، أو علاقة المخرب بمخريه ، علاقة معقدة غاية التعقيد .

وكان أول لقاء بينهما بعد خروج شوقي من السجن . ووصول ملف خدمة (عباس) لتوقيع الكشف الطبي لإثبات عجزه تهيئاً لفصله من الخدمة . وكانت أول جملة تقال في حق عباس على لسان (عبد الله التمرجي) الذي يعمل في المكتب الطبي مع (شوقي) : (ده خلاص يا بيه ...الرجل بقى يهيب زي الكلاب ويهوى زي الديابة) .

وحينما عرف (شوقي) أن (عباس) هو العسكري الأسود ، سوط عدابه كاشف عبد الله التمرجي والقصر بذلك ، حينما كان عبد الله يقص عليهما بعضاً من صفات عباس ، (٥٥) . (وكان جبار ... أعوذ بالله ...والله يعيني دي شفته قتلوا عليه الأوضة اللي في الدور الثاني بتاع المحافظة اللي قصاد المكتب الطبي في الدور الثاني على طول هو وواحد من السياسيين . وقعد يضرب فيه من صراحة ربنا والجدة يقول أي ! ..ولا هو سائل فيه .ولغاية ما روحنا الساعة خمسة وشرفك سنناه بيضرب فيه) .

بعد ذلك اعترف شوقي للقاص عن أسر المصروب ، بقول : (أنت عارف الي كان بيضربه العسكري الأسود في المحافظة ده م الصبح للمغرب عارف مين

- كنت أنا .

وكان فرصة العمر قد لاحت لشوقي ليتقابل مع تلك القوة العمياء ، القوة العاشمة التي دمرته وجعلته أطلالا . فبالرغم من إصرار عبد التمرجي بأن يترك شوقي الحالة للحكماشى . ولكن شوقي أصر على الذهاب إلى عباس ليوقع عليه الكشف الطبي .

أما عباس الزنقلى فقد نشأ قويا متفوقا على كل أقرانه ، وطارت شهرته وصيته في بلدته ، وبعد أن انتهى من تأدية سنوات الجهادية تزوج من ابنة عمه (نور) ونزح بها إلى مصر ، وإذا كانت حياته الوظيفية قد شابها كثير من الاضطراب والتقلبات والجزاءات في أول الأمر ، فقد استقرت ومنح ترقيات وعلاوات استثنائية ، هذا بعد أن أعجب بقوته رئيس الوزارة ، وأخذه ليصنع منه سوط عذاب لخصومه السياسيين ، وتفانى عباس في تأدية واجبه تفانيا عظيما فقد كان آلة تعذيب أحكمت صناعتها ، فهو إذا سلط على أحد لا يتركه إلا بعد أن يتدخل اثنان يقاربينه في القوة ليستخلصوا ما بقى من ضحيته ، وأصبح رمزا لعود الإرهاب والعصف والتنكيل .

وعش عباس في هنية من العيش الرغد الزاخر ، وأصبح محاطا بالمرئيين وأصحاب المصالح والمتملقين ، وكان يسهر معهم إلى ساعة متأخرة من الليل ، ولكنه ينحدر إلى شخس آخر حبا بفرد نفسه . (٧١) :

(إن عباس كان حين يذهب عنه الأصدقاء والزوار ويصبح البيت خاليا إلا منه ومنها ويذهب عنه المرح والضحك الذي كان غارقا فيه ، ويستمر على جلسته المتربعة منكس الرأس إلى أسفل شارداً في حزن مفاجئ لا تعرف سببه يبقى هكذا بالساعة والساعتين لا يتحرك ولا يحدثها ولا يغير من وضعه ، وإنما كان يجذب بين كل حين طويل وحين أن يرفع رأسه فجأة مسلا من صدره نهضة عميقة قائلا :

- إيه ... حكم ! ثم يعود رأسه يسقط ويعود إلى الحزن الشارد الذي كان فيه)
مواجهة مع النفس ن يتذكر فيها الإنسان كل ضرر ألحقه بالآخرين .

سيكولوجية المعتذب :

إذا كان هناك ضرر واقع على المعتذب ، فسوف تصاب شخصيته بالكثير من التدمير والتخريب . ليحيله إلى شخصية منبثة الصلة بالإنسان السوي ؛ لأنها طمست كل الملامح الداخلية التي تميز الإنسان عن غيره من بقية الكائنات ، فإن الضرر يلحق بالمعتذب أيضا .

ففي نفس اللحظة التي يقتل فيها القاتل فلانا من الناس يكون قد قتل نفسه أيضا . لأنه بارتكابه هذا الفعل (الجريمة) قد خرج أو أخرج من عداد الجنس البشري . القاتل أيضا مقتول ، والقاتل هنا تم بيد القاتل نفسه . لأنه هتك القيمة الأدمية للإنسان . ليس لإنسان منفرد بالذات وإنما لكل إنسان على وجه الأرض وهو - القاتل - داخل هذا الحصر ، والقاتل لم يقتل ذاتا إنسانية فحسب ، وإنما أوحد صدعا لقيمة نفس كيان وكرامة ووجود بني الإنسان جميعهم . وهو من أولهم وهذا ما حدث لعباس الزنغلي . فقد مر بالأطوار التي مر بها شوقي ، فقد تغير ولم يعد هو عباس الذي تعرفه زوجته (نور) عين المعرفة ، وأصبح يهوهو ويهدهد وأراد القاصر أن يعطي للتغيير والتحول المعنوي الذي انتاب نفس ومشاعر عباس أراد أن يعطيه أبعادا مادية لكي يزيد من أثر التحول ، فأعطى بعض صفات المتوحش . أو الكلب لعباس ، وكما تعود على تعذيب وتدمير الآخرين فاستدار في نهاية الأمر على نفسه ليدمرها ويخربها .

لوم وتأنيب وتقريع من الجزء الحي الباقي فيه ، فمهما كانت قوة الإنسان في إخفاء هذا الجزء ، وتغليب وتعظيم الجانب الشرس في شخصيته . إلا أنه في لحظات يضعف وتخور قواه ليستطع هذا النور ، نور الضمير ، وتبدأ عملية حساب

عسير، محاسبة الإنسان لنفسه . وحينما يحاسب الإنسان نفسه . فهو من أغلظ القضاة أكابادا ... وهذا ما كان يشعر به (عباس) حينما يتفرد بنفسه . وليس هناك من سبيل للنجاة من ذلك الحساب إلا بالهرب ... ووجد (عباس) الأفيون والحشيش خير منجاة من العذاب وتأنيب الضمير . والمرحلة التي كان عباس يمر بها تشكل لغزا لزوجته (نور) . فهي لا تدري ما سبب تغييره هكذا . وكل ما تعرفه وتستيقنه أنه لم يع (عباس) . لقد أصبح شخصا غريبا عنها . لا صلة بينها وبينه حتى الفراش لم يعد يجمعهما حتى ظنت أنه ممنوع عبا : (٧٥) :

(إن عباس لم يعد عباس . لقد أصبح رجلا آخر لم تره أبدا ولم تعرفه ... رجلا آخر بطبائع ومزاج آخر غريبا لا تحس أبدا أنه زوجها الذي تزوجته ومن الواضح أنه هو أيضا . وقد عادى كل من كان يعرفهم وتغير ولم يكن قد تبقى سواها بجاسه . وكان واضحا أنه بدأ هو الآخر يستغربها وينكرها ولا يرعى لها شعورا ولا يهتم من أين تنفق أو كيف تدبر الأمور... (أم على الحسادة) تقول لها أن الأفيون قد غيره . ولكنها هي العليمة الخبيرة به تعرف أن الأفيون وضيق خلقه وشروده ونفوره من الناس عرض وليس سببا . السبب أكبر وأبعد من أن تستطيع وحدها إدراكه . لقد كانوا يحيون ككل خلق الله في أمان . فماذا حدث ؟ قالت لنفسها أنها العين وعين أم على بالذات . وأخذت من (سملها) ورقته وبخرت وقالت أنه عمل ودهيت لشبح العمولات ودفعت الأحر وذبحت الديك الأسود وحربت كل علاج ودواء . وحالة لا تسير إلا إلى أسوأ خاصة محرره لها في الفراش وذلك الذي طال وطال حتى اعتقدت أنه ممنوع عليها بسحر . التمسّت فكه وفكته

وظل مع هذا ذلك الشخص الغريب الذي لولا الشبه الذي لم يتغير لما عرفته وظل هو يبعد عنها ويبعد ولا يكاد يحس بوجودها .

إنه معزول عما حوله . وكان منفذ وجوده سدت ، وصدره ضيق كمدا . فهو يتجرع العذاب أضعاف ما أذاقه لمن عذبهم . إنهم يلاحقونه في ليله ونهاره وصميرد لا يتركه يهنأ ، لقد فعل ما يعاقب عليه . ولابد أن يعاقب نفسه على ما فرط في حب الآخرين . (١٧٧) ، (كان عباس يبدو كمن جُن . يصحو صارخا مرعوبا إذا نام . وإذا أنفرد بنفسه تجده فحاة قد انتهال عليها - على نفسه - شتائم وسباب نفس شتائمته ذات الألفاظ الداعرة . بل رأته مرة ينهي شتائمته لنفسه بصفحة من يده يبوي بها على وجهه وقررت يومها أن لا بد من التعجيل بالفرار) .

فهو وجود مدنس سعى جاهداً إلى تطهير نفسه بنفسه . ولا يحد إلى ذلك سنبلا سوى إنزال العقاب على نفسه عسى أن يخفف ذلك مما يعانیه من عذاب ولوم نفسي حاد .

لقاء الثائر :

والتقى شوقي بعباس . ولكنه لقاء يختلف عن ذلكم اللقاء الذي كان يحدث في الماضي . ففي الماضي كان اللقاء يحدث في السجن ، لقاء تخريب وتدمير من عباس لشوقي ، أما في هذه المرة . فاللقاء يتم في بيت عباس . بين مريض وطبيبه ولكنه كان أبعد ما يكون عن لقاء الأطباء بمرضاهم ، كان لقاء المقتول بقاتله ، المخرب بمن حربه . لقاء وجد فيه شوقي بعض العزاء لما سببه له عباس ، هذا النوع من العزاء والراحة التي يشعر بها الشخص الموثور بأن خصمه قد نال جزاءه وكأن شوقي كان مقتولاً ، وحسبما رأى عباس رُدت الحياة إليه مرة أخرى . (٨٤) :

(إذن في تلك اللحظة بدا وكان شوقي القديم ...شوقي الثائر قد دبت فيه الحياة من جديد وصحا وكأنه كان ميتا . محنطاً في مكان ما في جسده)

لقاء أعرب ما فيه أن شوقي يقف على قدميه وعباس طريح الفراش . وعندما تحدث (شوقي) مع عباس تحدث معه بعنف وفظاظة حتى أن زوجة عباس (نور) والقاص تدخلوا خوفاً من أن تمتد يد شوقي إلى عباس ، وكان عباس يجهل شوقي . أو هذا ما توهمه شوقي . قال على نفسه تذكير عباس بكل شيء ، بالكائن الإنساني المخرب . بأطلال الإنسان ، الذي يسير على قدمين ، وقل شوقي صرحت بنسج معاني الألم والنمرق والحقد والعتب والانتقام . (٨٨) : (ما تستعطش ... ما تعملش أنك ناسي ...مش فاكر العنبر ؟ مش فاكر عُلق الساعة خمسة ؟ مش فاكر دور تسعة ؟ مش فاكر النبايت ؟ مش فاكر الكرياح ؟ مش فاكر الدم ؟ مين كرابجك وديته مين ؟ مين صراخك يا وحش مين ؟ مين نعل جزمك الحديد ؟ مين كفك ؟

فين صوابك ؟ فين النار فين ؟ بص لي وانطلق وأتكلم اصرخ زي زمانسمعتني صوتك اصرخ يا عسكري يا أسود بص لي وانطلق وأتكلم وصرخ ما تملش ناسي وان عملت أفكركحالا أفكرك . ولا أعرف كيف استطاع شوقي في تلك الومضة المتناهية الصغر من الزمان أن يخلع جاكته وقميصه ويرفع فانتله ويكشف ظهره وبالهول ما رقت عليه أنصارنا لم يكن في ظهره مكان واحد له شكل الجلد أو مظهره . كل جلده كان ندوبا بشعة تمتد بالطول والعرض وتتجمع في هضاب مندملة عن مناطق غائرة في قاعها نكاد تبدو عظام الضلوع . مشهد بشع يجعل القشعريرة تسري في جسدك لا لمجرد مرآه وانما لتساؤللك عن القسوة المتوحشة التي أحدثت كل ما تراه . لكن دننا محنونا أو غولا قد عمل أنيابه وأظافره في ظهر شوقي نهشا وتقطيعا وفتكا) .

ولم تعد عضلة في حسد شوقي لم تنفجر بالغضب والثورة . تصرخ بكل هذا الألم الذي هتكها ربحا من الرمن وظلت تعاني منه ، وشارك الأعضاء في الصراح العظام والعروق والدم . أصبح شوقي كتلة نار من الصراح والحقد . هذا الصراح استحال إلى عواء حقيقي . ألم يتحول شوقي - من خلال العذاب الواقع عليه - إلى حيوان يتلقى العذاب والألم في صمت قاتل وسكون مميت .

وكان عباس وقد رأي ما حنت يده محسدا أمامه . فأراد أن يهرب . وليس هروب من مكان إلى مكان آخر . ولكنه الهروب من الوجود ، نفس الهروب الذي كان يحاوله شوقي . أن يقلص وجوده ويظل يتقلص حتى يختفي أو يدوب في الأثير (٩١) (أما عباس فقد ظل يسكب على شوقي نظراته المميته ولا يتحرك له حفن ولكن ما كاد صراح شوقي يستحيل إلى عواء حتى رأينا كأن بارقة إدراك قد

تحركت فوق سطح العيون الميتة أعقبتهما في الحال اهتزازات عاصفة لم تلبث أن تكشف عن نظرة دعر راحت تتعمق وتتعمق وتصبح رعبا هائلا مقيما ، رعبا جعل الحياة تدب أيضا في الجالس المكوم نصف جالس وتدب على هيئة خوف ، فبدأ ينكمش على نفسه وينكمش ويزحف بزوجه بعيدا إلى آخر الفراش ، ويصغر حجمه ويتكور ولم أكن أتصور أن الإنسان في انكماشه يستطيع أن يصل إلى هذه الدرجة من الصغر . الدرجة التي تكاد تعتقد معها أنه لو استمر ينكمش بنفس السرعة لتلاشى واختفت الكرة الإنسانية عن الوجود ... وربما رغبة هذا وانكماشه هو الذي جعل شوقي يطارده ويتقدم في اتجاهه ويتضخم كلما رآه وينكمش ويقترب كلما ابتعد ، مطاردة لم يوقفه الفراش فقد ارتقاه شوقي واستمر يتعقبه ويصرح فيه ويعوي ولا يكف ، وربما رعبه الهائل هو الذي حال من ناحية أخرى بين شوقي وبين الانقراض عليه وإزهاق روحه) .

ولم يتذكر عباس شيئا إلا حينما سمع عواء شوقي ، كأن العواء هو المفتاح الذي فتح أبواب عالم عباس ، عالم الكلب والذئب وكل تلك العائلة من الحيوانات الضارية المتوحشة ، من الحيوانات التي لا تتورع أن تنيش لحم بني جنسها بل به ، عالم الضارب فيه ذئب يجد لذته ومتعته في التدمير والتمزيق والتخريب والمضروب فيه أفضل أنواع الحيوانات ، فهما لا يفهمان غير العواء لغة ، والتهيبة معنى ، وارتفع عواء وهيبة عباس ، بل استطال معه وكأنه أصبح فم ذئب شرس وأصبح دثنا حقيقيا يود الاهتراس ولعق الدماء ، وبالفعل يفترس أقرب الناس إليه زوجته . (٩٢) : (أطبق الفم المفتوح على يد الزوجة القريبة منه ، وبدأ يلوكها بين أسنانه ويضغط كمن يهيم بالتهامها واحتملت الزوجة قليلا وهي ترجوه أن يتركها

ولكننا وجدناها فجأة -- وكأننا أدركت أن يدها على وشك أن تتمزق - تطلق صرخة أعلى من كل عواء وهدية تعقدتها بصرخات سمعنا على أثرها دق الجيران على الباب) .

وحيثما لا يجد ما يفتريه يفتري نفسه ، وإن كان قد افتري نفسه من قبل حينما اعتدى على إنسان وأخرجه من جنس الأدميين بتعذيبه ، وأنزله إلى درك الحيوانات . وقبام عباس بتعذيب نفسه ، هو نوع من عقاب الذات للذات ، على ما أنزلته من عذاب بالآخرين ، فيقول بعد بطق هذا الرجل المسمر سار الدب والمشعل سائب الضمير ، (٩٣) :

(لولا أن عباس أهوى بعمه على لحم ذراعه النحيلة التي كانت تبدو من كم الجلدا الممروق ، وظل يضغط وينظر إلينا بعبون ملتوية تحترق ، ويضغط ولعابه قد غطى الدراع العارية ومن كثرته بدأ يتساقط ويسيل ، وهو لا يكف عن النهش والضغط وكأننا هو لا يحس أو يتألم أو كأننا الألم يدنعه إلى مزيد من الهياج وغرس أسنانه في اللحم وكان لا يد أن يحدث ما حدث وأن تدير النساء وجوههن وأن تدير وجوهنا معهن ، ما عدا شوقي فقد لمحتة لا يستدير وغنما يظل يفتري في وقعته مستمتعا بما يراه . وحين عدنا مرة أخرى بواحه عباس تبين أننا لم نكن قد نحاشينا الكثير باستدارتنا ، فقد وجدنا وجهه قد ارتفع عن الدراع حقيقة ، ولكن الدم كان يتساقط من فمه ويحتلط بلعابه إذ بين أسنان العم التي كانت انفرجت عنها الشفاة كانت هناك قطعة لحم مدماء ، القطعة التي نجح في نهشها من ذراعه . ذراعه التي كانت لا تزال في مكانها فوق ركبته ، ومكان العضة فيها قد أصبح جرحا منتهكا بشعا ، وكان عباس الزنقلي لا يزال رغم وحود قطعة اللحم

بين أسنانه يعوي ويههب بصوت مكتوم وكأنه ينزف من صوته والدم قد بلل
عوائه وحنقه) .

وكان - ما أصاب عباس - جزاء وفاقا لما أوقعه بشوقي وبغيره ، فقد هان
عليه أكل لحم الآخرين ، فهان عليه أن يأكل لحمه (وما ظلمناهم ولكن كانوا
أنفسهم يظلمون) . وكما قال شوقي للفاص بعد ذلك وكأنه أدرك هذا القانون
الأزلي . (٩٥) : (أتعرف أنك حين تؤذي غيرك تؤذي نفسك دون أن تدري ؟ ومرة
يسرح ويضحك فجأة ويتزل : دع الضارب يضرب ، فيده التي تضرب تمتد أيضا إلى
دات نفسه) .

وكما قالت أيضا (أمر على الحصاد) أثناء خروج الفاص والمرجعي وشوقي من حجرة
عباس . (٩٧) ، (لحم الناس يا بنياللي يدوقه ما يسلاهيفضل بعض إنشاء
الله ما يلقاش إلا لحمه ، أطف يارب بعبيدك) .

الصدع :

الإنسان لوح من زجاج ، قد يكسر ، ومع ذلك لتعلمم لقطع بعضها إلى بعض وتعيد اللوح الزجاجي ، ولكنه لن يعود كما كان أبداً ، فهناك الذي لن يجبر فالإنسان كائن معقد . ليس من اليسير فهمه أو إرجاع تصرفاته لدوافعه الأولية . إذا هدمت مقوماته الإنسانية . وقوضت دعائمه البشرية ، فإعادة بنائه تعد من المحال ، وإن حاولت فتلك المحاولة مقضي عليها بالفشل منذ البداية .

وقد حدث صدع في شخصية شوقي . وكان يظن القاص أنه بعد أن شاهد شوقي ما حدث لعباس وما انتهى إليه الأمر أنه سيشفى مما به . ويعود ما كان في بادئ الأمر إنسان سوي له تطلعاته أهدافه ويستقبل الحياة بكل جرأة وإصرار ولكنه اكتشف أحريراً خطأ ظنه ، وأن سرفي سيظل على ما هو عليه . (١٩٦١) ، وفيما عدا هذا كفتني بضع جلسات مع شوقي أن أومن أن الحالة التي رأيتها عليها وملأني بالأمل كانت كصحية ما قبل الموت . وأن ما حدث له من تغيير والكائن الجديد الغريب الذي أصبحه طريق لا يمكن الرجوع منه ، لا يمكن أن يعود الجلد الطبيعي مكان الندبات التي يحفل بها ظهره ، أحل ! أدركت ما فاتني إدراكه طوال سنين ... أدركت أن شوقي وقد فقد أمنه البشري مرة لن يعود أبداً مثلنا بشراً مرة أخرى) .

ونلك الشخصية تحب الحياة ، وكأن هناك قوة تدفعها لذلك ، بدون أن يجد لتلك الحياة غاية أو هدف . لا يشعر بالوجود لا يستمرئ شيئاً من طاقاته ، منعزلاً عما حوله . سلبي ، ل شيء يستثيره أو يحركه ، وكأن الوجود أمامه موات ، كما

مات الإحساس بالوجود داخله . فليس هو بالميت ولا هو بالحي ، فقد وصل إلى منطقة انعدام الوزن . الموجود فيها لا يشعر بقوة تدفعه إلى الأمام ولا إلى الخلف ولا ترتفع به ولا تنزل ، فقد سحقت تلك القوة العمياء التي لا تجيد سوى اغتصاب الحياة ، وقذف الظلام والخوف والرعب في قلوب البشر .

obeikandi.com

الفصل الرابع

رجال وثيران

- ❖ مسيرة الإنسانية وصراع القوة والعقل .
- ❖ نظامية الحياة .
- ❖ دور الجمهور في الحفاظ على القيم .
- ❖ يونانيا (الألبانيا) .
- ❖ من البطولة .
- ❖ فردية البطولة .
- ❖ نورية المصارع .
- ❖ المراكز والمجتمعات وحرية الإنسان .
- ❖ قدرية المصير .

obeikandi.com

مسيرة الإنسانية وصراع القوة والعقل :

لقد شغف الفنان العالمي (بابلوبيكاسو) دوناً عن بقية الفنانين بالتعبير عما يحدث في (الألرينا) من صراع بين الثور والإنسان (الميتادورز)، ولا بد أن ما يحدث في (الألرينا) قد اتخذ أبعاداً أعمق وأشمل من أنها مجرد لعبة أو تسلية وترفيه، فهي -- في حقيقتها -- ترمز إلى صراع الإنسانية عبر مراحلها الطويلة خلال طريق التقدم والتحضر، ذلك الطريق أو تلك المراحل كانت صراعاً مطرداً بين القوة الغاشمة المتمثلة فيما حول الإنسان من ظواهر طبيعية وبين عقله، وكان الانتصار والظفر -- رغم ضخامة وقوة وشراسة ما حول الإنسان -- في جانب الإنسان، فقد استطاع بتلك القوة السحرية المتمهلة المتأنية أن يتغلب على الطبيعة ويستأنسها ويسخرها.

وفي بداية الرواية تنشأ علاقة بين القاص و (الميتادورز) لم يستطع القاص أن يضع لها اسماً، أما لماذا نشأت تلك العلاقة بينه وبين تلك الشخصية بالذات؟ فيفسرها القاص بقوله، (٨١) : «ربما الذي استوقفني في الوجه، أنه الوحيد المنمر الشحوب وكأنه من برع خاص، نابع عن إحساس خاص لا يشاركه في سواه، وكأنه وحده هو الذي يدرى، ووحده الذي يتوقع، وحده الذي حين نراه ينقل إليك علمه، ويبدأ أنت الآخر ندرك وجود شيء في الجو والمكان شيء آخر غير الناس والأردحام ونموس ما بعد الظهر وضحة (البيستا) والاحتفال، شيء حاضر خفي ذاكن راض، ينظر اللحظة المناسبة لعلل حسماً عن وجوده ويقض وفي الحال ودوناً عن ثلاثين ألف إنسان، ويمتل سريرة النماس ولا بد أبننا أن يدق قلبك دقة الخوف؛ إذ ندرك على العور إدراكاً شريفاً منهما وكأننا ينسط كالإلهام أن فمة شيئاً غير عادي سيقع اليوم لصاحب ذلك الوجه، وأنه أنداً لس بغادر (الإريما) اسعس

الحال التي جاء بها . هذه الدقة المفاجئة وما صاحبها من ارتعاج صغير عارٍ حدثت لحظة حطيرة عريضة في حياتي . لحظة الثاني للإنسان جديد لم يكن مذ وبضة يعينى أمره ، فعدا بالدقة نبدأ معها علاقة وتنعدي العلاقة سرعة مراحل التعارف الأولى إلى مرحلة الصداقة بل نعداها إلى ما هو أكثر . مرحلة القلق العظيم على الصديق . والنسج المنسق لحظ (معمود) .

وبدأ هذا الخيط الرفيع أو الوتر المشدود بين القاص وتلك الشخصية حينما يشد الكاتب من أعماقه حينما يشرف (الميقادورز) على الموت بطلعة من طلعات النور الهائج ، وحينما يترك القاص يأخذ أنفاسه . حينما ينتصر المصارع في جولة من جولاته مع الثور ، وربما تكون تلك العلاقة - من جانب القاص - لأن تلك الشخصية تحمل قدرها فوق يدها ، ومصيره محدود بحير زماني ومكاني محدود نعم ، فصائرنا كلنا محددة ولكنها محنولة لنا ، أما هو فعلى الأقل يحالجه شك في أن نهايته قد تكون على قرون النور . وإنسان في مثل هذا الموقف لا بد وأن يسترعى ويستحود على اهتمامنا ، فالمصارع يدخل في صراع بين قوة الثور وبين عقله ودكائه . ولن ينتهي الصراع إلا موت أحد الطرفين ، الثور أو المصارع . هذا الصراع انتقل من ساحة (الأرينا) إلى صدر القاص وبين الثور والمصارع إلى نفس القاص متمنلا في خوفه وقلقه على مصير المصارع .

وحينما رسم المصارعون علامة الصليب قبل بداية المصارعة استوقفت تلك الحركة القاص . فقد أحدها أول الأمر كعادة من العادات الكاثوليكية يؤديها الإنسان بدون وعي منه ، إلا حينما نظر القاص إلى صديق المصارع هذا ، فذ لمع

(كان شمة ابنهال حقيقي واضطراب لابد علت معه دقات قلبه . وخبيل لي
أن لونه ازداد شحوبا) .

إذن فهو يرسم تلك العلامة مدركا لأبعادها . مدركا أنه قد لا يخرج من
الطبة إلا محمولا وقد فارق الحياة . حينئذ أدرك القاص أم ما يجري أمامه ليس
لعبة ، وإلا أين تلك اللعبة التي قد يخسر الإنسان فيها حياته ن إذن فما يحدث
ليس بالهزل وإنما الجد بعينه وكل شيء حقيقي في اللعبة . (١٨) :

١ إن مجرد نسبة الشيء باللعبة - حتى لو كانت اللعبة مصارعة ثيران أو وحوير -
بعطنا في فيما لوبا ما . معى غير جذى جذية نامة . حتى لو كانت حطرة فيبي ليست سوى
لعبة . واللعبة لا تقترن في تفكيرنا باللعب فقط . ولكن أيضا بالهزل . وليس ما... هياك...
فيما وراء كل ما كنت أراه من حذبة وخطورة واستعدادات كانت فكرة أن المسألة كلها ليست
بالوعورة والخطورة التي صرروها لنا في السعيا والروايات . بلاد هياك من طريق منعق علينا
وينسعة للتقليل من خطورتها في الباطن مع إضعا . نوب الرهبة عليها من الخارج . هذه الحركة
التي منحها في آخر لحظة . جعلت الشك يبدأ ينسرب إلى في اعتقادي . وجعلني أساءل : أليس
من المحتمل أن تكون المصارعة مصارعة حقيقية فعلا . بلا أى عمت مما اعتقدت . أو انماق .
وأن الناس جميعا يأخذونها حدا ما عداى ؟

سأزل راحت الأحداث المتعاقبة تدعمه من ناحية . وينفيده من نراج . وطللت لا أحد
الرهان الرابع الذي لا يقبل الشك لم أكن أعرف ما ينظرني بيها .

إذن ما يحدث أمامه ليس باللعبة على الأقل . وهناك احتمالات كثيرة ترجع
جدية ما يحدث . لذلك فإن مفردات الموقف وجزئياته أخذت أبعاده الحقيقية
فالسيف بيد المصارع سيف حقيقي . والصراع حاد وشرس وقد يخرج المصارع

مقتولا ، والتصور أخذ صورة القوة الغاشمة التلامئة إلى الدم ، والجائعة إلى جسد المصارع ، فهي تتوق إلى أن تمزقه شر تمزيق . (٢٢) . (هذا المعوث الداكن يمثل كل ما في الحياة من قوة ونعطش للعدوان والرغبة في النحطير والدمر والنخريب ، هذا الذي من فرط سرعته ، ويجتره لا يكاد يستقر في مكان وينقل من محيط الحلقة إلى محيطها الآخر قبل أن ندرك أنه انقل . هذا الموجود بكل مكان ، المنحرك كالعرق كالضوء .. كالرياح في كل اتجاه حركة بلا هدف إلا الحركة هسيا ، ورعة في النخريب والنحطير بلا هدف إلا النحطير ذاته والنعلب على كل ما يقع في طريقه صديقا كان أمرا عدويا بلا هدف أو حكمة إلا هدف النعلب ذاته ، كئلة الحماة المركبة تركيز الجرس في القمة المطلقة المنفجرة بلا غاية أو هدف نجسد لما ذلك المعس الذي كثيرا ما نذولناه حتى اعندناه .. نخسد لنا كلمة الرجس وربما السب والإذافع التي حدثت بأحدادها الأولى أن بطلتها على بعض أعدائهم من الحيوان)

نظامية الحياة :

ثم ينتقل القاص بعد ذلك إلى مستوى آخر من تأملاته ، فهو يدرك أن تلك القوة العظيمة والاندفاع الأوسع يحكمه نظام ، وطالما أن النظام الذي يحكم هذا الحيوان لم يختل ، فالثور هو الثور بكل ما يتفجر في جسده من قوة وغضب وانفعال ، أما إذا اختل هذا النظام الدقيق الذي يبقى الثور حيا ، فسوف يقضي على النظام ويترك الثور بدون حياة ، لبدأ نظام آخر في العمل ، الفناء ، (٢٧) : (نفس الجسد نفس العضلات والقرون نفس القدرة والطاقة وقد أصبح فأقدا ككل القدرة وانتهت حركته إلى الأبد ولماذا ؟ لأن قطعة معدن صغيرة دخلت جوفه ، فأخلت نظام الحياة داخله وتوقف . أحل نظام الحياة . إنه شيء مضحك حقا أن نعرف أن تلك الطاقة الحيوية المانعة التي كانت تدور على هيئة فرضى كاملة نريد أن نعيث فسادا في كل شيء . ويخل نظام كل شيء ، ويحيل كل شيء ، إلى مرف . هذه الطاقة الحيوية المنفجرة لتسرع العرضى في كل ما حولها مصدرها نظام بالغ الروعة ، دقيق لولاه ما استطاع أن يحرك ذبلا أوبس ذبابة أو يأخذ شحقا ، نظام يخسر أو خدسه قطعة معدن أوديسر لكي - من سدة إنفانه - يخل ، وينهي كظام حاة لبدأ يعمل فيه نظام آخر نظام الموت والتحلل والفناء)

ليس نظام يحكم الثور فحسب ، بل يحكم كل الأحياء بما فيهم الإنسان ، وإنه شيء عجيب حقا ، فكل الكائنات الحية محكومة بنظام غاية في الدقة ، هذا النظام يحكم الموجود ، أو هو الصلة بين الموجود والوجود ، وأقل شيء يستطيع أن يخل بهذا النظام كعيل بأن يقطع الصلة التي تربط بين الموجود والوجود .

دور الجمهور في الحفاظ على القيم :

للجمهور دور خطير في الحفاظ على قيم اللعبة . فهو يقوم بدور المتفرج فحسب . بل يقوم بدور الحكم الأول الذي يحافظ على منطق وقيم اللعبة . ويتدخل إذا رأى شمة خروجاً عن اللعبة . فيحتج ويعترض إذا ما كان الثور صغيراً أو ضعيفاً ويعترض الجمهور كذلك إذا ما حاول المصارع أن يقتل الثور مخادعة أو غدراً . وهناك دافعان يدفعان الجمهور لانتقاد هذا الموقف :

الأول : رغبته في الحصول على أكبر قدر ممكن من المتعة وهذا لن يتيسر إلا إذا كان الطرفان - الثور والمصارع - متعادلين في القوة ، وبهذا التعادل بين الطرفين تأخذ اللعبة أبعادها ورموزها . (٢٢) : إنه يريد أن يظن بأقصى متعة ويشعر لا يعرف حينئذ بين الطرفين الإنساني أو الحيواني في هذه اللعبة . كل ما يمهده أن يكون الطرفان قويين . وأن يكونا أيضاً متعادلي القوة بحيث لا يخطئ أحدهما باسثمار سهل على الآخر . ويختن نظير المتحركة ويصعب ويختن بخس كل طرف منهما أقصى ما لديه من طاقة ومن . ويتصارعة الثيران قد ندو للأحصى لعبة يتنقل فيها الرجل التير أو تحدث التكاينة ويتنقل التير الرجل . ولكن الجمهور الأساني لا يأخذها هكذا أردا إليها عدة مارة بكل ما تملكه الكلمة من معنى مارة بين القوة الحيوانية الرحسة العائنه من ناحية والدكاء الإنساني والرساقه وسرعة الإدراك والعظمة وسعة الحيلة من ناحية أخرى . مارة بين سحاعة الحيوان اللاواعية وسحاعة الإنسان الراجعة . مارة بين الحماة في بدايتها القوية وسبنا في رقبنا الذي أسعد فدينا العقلية . ماختصار مارة بين العصل والقوة .

الثاني : إنه لا يهتم بالوسيلة قدر اهتمامه بالغاية ، فلا يعنيه أن يقتل المصارع الثور ولكن جل اهتمامه هو كيفية هذا القتل بحيث يكون متضمنا كل معاني الشجاعة والبطولة ، (إن معناه هنا أن الغاية في نظر الجمهور لا تبرر الوسيلة وأن يخفي فارس بالدروع ليطعن الثور المنرجح القاتل في ظهره ، وسيلة ليست شريفة من وسائل الحرب ، والوسيلة في الحرب - أي حرب - لا تقل أهميتها ومعناها عن الهدف من الحرب نفسها ، إنه احتجاج ضد الخداع والجن ، أن للجمهور دورا آخر في المباراة دورا بيما : أن يحافظ على (التيمر) ويحرسها ليس مهما في نظره لمن يكون النصر المهيمن دائما وأولا كيف يأتي الانتصار) .

وعادة أن الإنسان يجب أن يلتزم بالقيم والمبادئ مع أخيه الإنسان ، أما مع الحيوان فالقيم والمبادئ ليست واردة في الأمر ، ولكن حينما يتمسك الإنسان بالقيم تمسكه هذا لا يكون مع الإنسان فقط ، بل مع الحيوان أيضا ، فالسلوك يصدر عنه متمسكا بتلك القيم سواء كان تعامله مع الإنسان أو الحيوان ، كما يقول رسولنا الكريم : (دخلت امرأة النار في هرة) فثنا يراد بالرحمة أن تكون في جنلة وطليعة الإنسان تكون ممتربة بكل سلوك يصدر عنه ، لا يختلف سلوكه باختلاف نوعية الكائن الذي يتعامل معه .

وإذا كان الجمهور في تلك اللعبة ينحاز - بطليعة الحال - إلى المصارع ضد الثور ، فإن هذا الانحياز منطاط بمدى تمسك المصارع بمعاني الشجاعة والبطولة والإنسانية - مع أن هذه اللعبة ليست فيها ذرة واحدة من الإنسانية - وهؤلاء يدفعون المصارع إلى أن يجهز على الثور بسرعة وبدون أن يترك له فرصة أن يتألم أما إذا أخطأ المصارع وأطال مدة التألم ، بأن أخطأ التصويب ، فالجمهور لا يتردد

في الانحياز للثور والوقوف ضد المصارع بل قد ينتصر للثور المقتول ، وينظر باحتقار واستهانة للمصارع الحي . كل هذا لأن المصارع جعل الجمهور يشعر بالألم والإشفاق والرثاء لهذا الثور المسكين ، فهي مشاركة في الشعور والإحساس حتى ولو كان مع حيوان ، فليس هناك فرق بين إحساس الإنسان بالألم وإحساس الحيوان . بل الأمر مع الحيوان أدهى للرثاء والإشفاق . ويتغير موقف الجمهور فعندما كان مع المصارع ضد الثور ، يتحول ويصبح مع الثور ضد الحيوان . (٤٣) :

(وس ساحة صامتة كريمة مليئة بالحزى والنقر والدمر والإثمثرار وكأما الجمع حتى المساهدين قد ساهموا ومدد شبة في ارتكاب جريمة حلقية شاذة ، انسحب المصارعون كلهم حتى ذلك الذي دبح الثور فلا انظار لنحة هذه المرة أو رمو حسه أنه سحرج قمل أن يعظن إليه المصنوع . ويعجز قادفا إباد بكل ما في مناهله . وكان الجمهور لا يزال يخيا مع الثور المقتول وكأما بقمر له جنازة تلقائية بنذاكر فييا كل ما أئداد خلال المصارع من أريان القوة وطريقته الخاصة ، الصمت بزسه .

وجاءت الحويل الأربعة وأحكم وضع الخلد على قروبه . وبدأت تحرق خارج الساحة ومر أعماق التمت المخيس اذفع فحأة وراء هذه المرة عميق وحقتي لا سحرية فيه ولا صغبر وطلد بسع حنة الثور حتى غابت خبورها خارج الساحة . وكان الهواء استنجانا لطفله . الطريقة الوحيدة التي يستطيع الجمهور في وقت كهذا أن يبدى سخطه ويتحركه . الحكمة بانتصار الثور الميت على (المنادور) الحي . طريقة حيل إلى من صراخيا وصراخيا وقسونا أن المنادور تحطنها لاد فتعل ألف مرة لو كان هو الميت بهذا المنجد على أن يكون هو الحي بكل ذلك الاستنجار . وأي إنسان تكاهه رغما عنه لا يبدى بتمس أن تصح الميت المنتصر ولا يفتي لحظة واحدة ذلك الحي المهورم

إن الهزيمة علماً وأمر الملائم فكذا وبمحكم جماعي بصدرة الآلاف مرة واحدة ومباشرة الهزيمة التي لا تقبل جدلاً ولا نكلاً أن نبررها حتى لنفسك وما بصاحبها من ذل وحرج أكثر إبلا ما من الموت نفسه . إن فقد الحياة أمرين كثيرين من الحياة مع معاناتها .

وتذبذب الجمهور هكذا يضع المصارع في موقف حرج . فهو أمام أمرين أحلاهما مر . فإذا أراد مجاملة الجمهور قد يخسر حياته بطعنة من طعنات الثور وإذا لزم جانب الحرص والحذر خسر الجمهور وتشجيعه وعطفه ، وتلك معادلة صعبة تستنفد من المصارع كل طاقاته الجسمانية والعقلية ليحققها ، لأنها في كلا الطرفين خسران .

يوتوبيا (الأثرينا) :

كل إنسان يصبو أن يعيش في عالم مثالي تحكمه القيم والمبادئ ، ويكون متسماً بكل الصفات الحميدة في سلوكه وأفكاره . ذلك لأن حياة الإنسان الواقعية قد تكون خالية من القيم التي تعطيها نوعاً من السمو والراقي ، فحياته مملّة مقفلة خاوية . وكأنها مسرح متهدم مظلم تتردد في نواحيه أصوات اليوم والغريان ، ويقوم الإنسان فيه بدور المنكسر المهزوم الضائع . لذلك يلجأ إلى الخيال . ليخلق عالماً مثلاً يشع بنور القيم والجمال . ويقوم بدور البطل الذي يجسد كل معاني السمو والراقي ويمتلاً كيانه بحي وعشق هذا الوجود . (الأثرينا) تمثل - بكل ما تحفل به من ضروب الصراع - عالماً مثالياً يجده الإنسان المطحون الذي لم يترك له وجوده القط الغليظ فرصة لينشد أي معنى من معاني الجمال في وجوده . فتقوم (الأثرينا) بدور المعادل الموضوعي لتعويض الإنسان عما فقده . وربما لم يستطع أن يظفر به في حياته وواقعه الجاف . (٤٥) : (في هذه الساحة يحاول الناس أن يخلقوا عالماً آخر بمنحلهما

عن العلم في الخارج وفي كل مكان . عالم الهدف فيه ليس أن نجيا أو نخافظ على وجودك الهدف أن نصير ، بحيث نخل كلمات النصر أو الهزيمة محل كلمات الحياة أو الموت ، ونجب تختلف كل المقاييس تبعاً لتغيير هذه القاعدة الأساسية من قواعد الوجود ، وكأن الناس همالم يستظبعوا أن يغيروا هذه المقاييس في حياتهم العادية فاستكروا وتصارعت الشيران أو شوها وجعلوا لها ساحة ، و (أرينا) ومنحفاً وعالمها كاملاً يدخلونه ليحبوا ولو لضع ساعات كل أسيرع ينده المنل والقمر ، وبدلاً من أن نقراً كأننا بروى لك قصة نطل لا يهمه الموت أو الحياة نذر الهزيمة أو الانتصار ، وبدلاً من أن ندخل دار للسما أو مسرحاً نطقاً فيه الأتوار ونعيش أو نضع نفسك أنك نركت عالمك الملئ بالصعف ، ولابيض الناس المنسفين بالحياة - وأنت ميهير - نشيت المنسيت ، وأصحت في علم آخر علم مخلوق من أناس أطلال لا يتردد أنامر أي صراع أو حطر يحدونه وينصرون فيه أو يهلكون دونه ، بدلاً من هذا أوجد الإنسان لأهسهم هذا المسرح الحري الذي يصير كأنات من الأحياء ، مسرح لا يحدعونك شتميل الصراع فيه ، ولكيك نحد نفسك أنامر صراع حقيقي لاقتل فيه ولا تقويه الجماهير المظلمة المبرومة في حياتها البرومة المنمكة بالحياة رغم ناهتها فسكا سنمينا لا يخلصها منه سوى قوة فاهرة حارة كالمرت هذه الجماهير ندخل الساحة لنشيد أناسا بنحنون بالحياة إلى درجة السعة إلى درجة الطولية في سسل أن يتسروا .

هناك حيوات وثيقة العرى تربط المصارع الفرد بالمجموعة ، فهو لا يخوص الصراع منعرداً وإنما الجمهور يخوضه معه ، والجمهور يشعر بطة ونشوة النصر ومشاعر البطولة من حلال المصارع فهو لا يجلب النصر لنفسه وإنما لهم ، فهم قد تقنصيه ، إنهم يعيشون الحياة بكل طاقاتها الوجودية ، ويشعرون بها من خلال كل ذرة في كيانهم ، فحياتهم تمر كمر السحاب ، لا طعم ولا رائحة ، وكل فرد كأنه ترس أو مسمار في عجلة الزمان العتيقة ، حتى إذا ما جاء عليه البلى ، جاء دوره

في الإهمال والنفي والنسيان . تمر أيامهم هكذا ! إلا تلك اللحظات الخالدة . لحظات الصراع ولحظات الانتصار . تلك اللحظات تخرج عن الحياة وملل الأيام ، إنها صدع في جدران عالم الكتابة والإحباط ، والخروج إلى عالم متألق فواح بشذى التجدد والتغيير المستمر نحو الأفضل ، كل تلك المسؤولية الثقيلة والخطيرة يحملها على الجمهور على عاتق المصارع ، وياله من تعجيد، وكم من أكاليل الغار والزهور التي يُقذف بها المصارع غداً حقيق ما يريده الجمهور . وكان عند حسن طئنه ، وهذا الخسران المبين والفشل الذريع والحسرة والمرارة إذا ما خيب المصارع طن وتوقع الجمهور وفشل في المهمة الملوكف بها ، فهزيمة المصارع هزيمة لكل فرد من الجمهور ولا بد أن يكون هناك مسئول عن الهزيمة . ولا بد أن يكون هناك عقاب ، ولهذا فالمصارع لا يظنون إليه نظرة تعجيد مفصلة عنهم . إن كلا يخوض الصراع المخيف من حلاله ، ويرسل كل منهم خطاً من ذات نفسه ، وروحه لتتجمع الأفياء وتلتقي عند المصارع وبفسه ، ربما يخوض المعركة .. يخوضها أساساً لحسابهم وكأثير أمانه عنهم ليقوم بالعمل التطولي العاشرين صر عن القيام به . ولهذا أيضاً فما أشد قمتهم عليه . إذا لم يقم عمله كبطل إذا عمل حساباً لكبابه المستقل . ومحافظته عليه . يهاون في القيام بالبطولة التي وكلوا إليه أمرها

إنهم لم يجنوا لينفجروا على راحة شات بمصارع ثوباً في حدود أن طل حيا ولو لم يصرعه . إنهم جاءوا ليسوا عنهم بطلا... بطولته أن يواجه المخاطر وينتصر عليها ، وهذا فمنعهم الكبرى هي حين يندرق الخطر بالمصارع ، وفر حثيم العامرة ليست هي أن يتخذ نفسه بنحس المارق الخطر . ولكن أن يضع نفسه في المارق الخطر . ويخرج منه سالماً . أن ينتصر على الخطر فواجهته . وليس بنجونه . فهم في حياتهم يعملون هذا . هم دائماً بنجسون الخطر

ويتربون من المأزق مؤثرين أن يوصفوا بكلمة الجيس أو الرعية مع السجاة أو البناء أحياء . وهما يريدون أن يفعلوا ما يخلعون عمله . أن يوصفوا بالطولية . ولو كان فيها مراحبة منحدره للخطر ويعرض أكر للهلك)

لندا الدور الذي يقوم به المصارع تختلف نظرة الجمهور عليه . فهو يجسد لهم قيمة البطولة . مثليوم في هذا مثل الأب الذي لم يستطع أن يحقق هدفا في حياته فسعى أن يحققه ابنه . وبذلك يحقق هدفه بطريقة غير مباشرة . فقد أناب الأب ابنه أن يحقق ما لم يستطع تحقيقه . كذلك الجمهور أناب المصارع أن يحقق البطولة . ولهذا فالمصارع في أسايا لس محمد خير رياضي . إنه أولاً وأساساً طفل شعبي وإذاعة الشعب للطولية . وكما لا ينكر أن نقل الناس من نطليا السياسي أن بساومر أويهاون فير أيضا لا نقل أندا من مصارعها أن بتومر بعمل لس فيه طولية . يجب أن يردي أحملا التبار ويردي إعطاه علانية . أأحمل السدرات وأن يتصرف دائما وأبداً كطفل حده الواقعة التي يسمع فيها صدره ويقذف براسه . إلى الخلف رافعا دقه في نرفع وكبرياء سنفر التور هذه الواقعة التقليدية لم نأت عمتا . إبا وقعة المظل هذه المدة القائلة إذا حرمر أومسل في إظهار طوليئه لم نأت عمتا أيضا فهي ليست هدية شخص عادى إنها هدية طفل)

ثمن البطولة :

ولكن ما الذي يدفع المصارع إلى تلك المغامرة ؟ وما الذي سيأخذه المصارع

إذا كانت نهايته على قرون الثور؟ فلا شيء يعدل حياة الإنسان !

تلك النوعية من الناس لا تريد الحياة وكفى ، وإنما تريد الحياة الممتازة التي يحدسه الجميع عليها ، والكل يشهد برفيها وسموها فوق مستوى الحياة العادية إلا أن ثمن تلك الحياة فادح فهو قد يكلف المصارع حياته وباله من ثمن فادح وبها لها من مكافأة نافهة لا قيمة لها عند من لا يقدر قيمة البطولة ، (وكما هو غريب ذلك النكريس الذي يتأ عليه) المينادور) فهو منعد معه عن طيب خاطر أن يعرض نفسه للحدث الأكرم من أجل (أوليها) إعجاب قد نكون أحرما بسمعه ، بل قد ينهي قبل جماعيا .

ولكن الإحساس بالأهمية ذلك الذي يدفع الإنسان لتقدم على أكبر حماقة في العالم كي يظفر به ، إنما ليست رغبة في البطولة للبطولة ذاتها أو للشخص ذاته ولكن لإظهارها للآخرين وأمام الأحرس ، فالتمثيل وفيها منه الشيء الكثير ! الفرق أن الممثل هناك (ينل) الدور بمقدار إتيانه (للتمثيل) ونتمتع به لشخصية الطار بال إعجاب الناس ، وهما الممثل (ينمور) بالدور فعلا ، ويقوم به في مسرحية لا ينحلبنا أحد إنما في واقع كأنه مسرح في حقيقة كأنها حال . ومقدار إتيانه للقيام بالدور وجعله الحقيقة تقترب من الخيال بخلاف الإعجاب أحل ! الفرق في المسرح وحلقة الصراع أنه في المسرح يحاولون أن يخلوا الخيال إلى حقيقة بمدقها العقل سما في الحلقة يحاولون أن يخلوا الحقيقة والواقع إلى أعمال حالة لا يكاد بمدقها العقل ! في المسرح يخلقون من الخيال حياة . طلة تدفع إلى كرة الحياة الواقعية ونعيرها . وفي الحلقة يخلقون من الحياة العادية الخاطلة نفسها حياة بطولية حقيقية تدفع إلى نفس

الغرض . ولكنها تدفع إليه بقوة أعظم ويعمل أشد . إن الإنسان في بحته الدائب عن بطولية الحياة وحياة الأبطال مستعد أن يستخدر أية وسيلة حتى تلك الملوثة بالدماء . المقطورة بالجريرة إنه بحث أبصا . ولكنه بشر بطريقته ينشئ عارمة القسوة لا يغفر لها إلا أنها عارمة المفعول في نفس الوقت) .

فردية البطولة :

ولكن أهنك مفهوم محدد لبطولة ؟ وهل تلك القيمة لم تتغير على مر العصور وتطور الإنسان ؟

وهل القيم التي كانت تحكم المجتمع في العصور الماضية ويعتمد عليها المجتمع في بقائه وناسكه هي نفس القيم التي تحكم المجتمع الإنساني في العصر الحاضر أم ان يد التطور نالتها بالتغيير والتعديل ؟

بلك القيم تغيرت . ولكن لم يتغير مفهومها العام أو إطارها الخارجي . فدى من العصر القديم إلى العصر الحديث صورة الفرد ينشد البطولة . ينشد عملا يحسد من خلاله قيم البطولة . والمجتمع يبارك تلك البطولة التي حققها الإنسان منفردا بصدقه وسلوكه في موقف في غاية الخطورة . بدون اتخاذ طريق ملتو أو شيء من هذا القبيل . (٦١) . (أن يخوض إنسان بطل الرجسي . ويطل الصراع بينهما سجلا أو يكاد يجب لا تخذ المواقف العاصلة نيحة صعب أحد الطرفين وإنما نسح رغما عن الاسي معا ويسب تعادل قوتين في الصراع وحين يحدث هذا الموقف العاصل الإحصاري ويصح على الإنسان فيه أن يقدر نفسه كعما انفق وأية وسيلة وإنما عليه أن يختار أكثرها حراة وحداقا ودكاه . أن يختار الطريق الطبيعي وحين لو نجحت وأتد بها نفسه اسحق البطولة عن حدارة ويحيت لو فسلت ومات اعذرت سنة أطلال وخلق ذكره)

أما في العصر الحديث فقد تغير مفهوم البطولة في ذهن المجتمع . فماذا يفيد المجتمع من تلك البطولات المنفردة المقتصرة على نفسها ، التي لا يخرج نفعها عن إطار ذاتها ؟ وإذ يصفق المجتمع للبطل لا يصفق له لأنه أضاف شيئاً جديداً للمجموع ، وإنما تصفق لأنه حقق لذاته ما كان يصبو عليه من خلال قيامه بأعمال توصف بالبطولة ، ولكن أصبحت البطولة الحقّة هو مقدار ما يضيفه البطل إلى المجموع من نفع وفائدة للمجتمع ، فالبطولة لم تعد متوقعة داخل ذات الإنسان وإنما خرجت وانفتحت لتعطي الكثير للمجتمع ، ليمنحها - بعد ذلك - التمجيد (١٩٣) : إنها نض باعجاب له هدف تصفق لمن يتقدم لها بطولته المصلحة والخدمة العظمى الرجل اليرم هو من يفيد الناس بطريقة أو بأخرى ، من بسط على أكبر قدر ممكن من مصادر القوى لا يدخل بها معركة ضد خصوم ولكن يستعملها لتحقيق للناس مطالب وأعمالا عجز غيره عن تحقيقها ، وهي بطولة أرقى ، ففي الماضي كان الشخص يقوم لنفسه ولجده ولذاته فيصفق له الناس ويمسحونه لقب البطولة ، ولكن في عالمنا الحاضر أصبح البطولة لمن يفوي لنا ولعائلتنا .

فإذا كان قيمة البطولة هي ما تضيفه للمجموع ، فما سبب حب الجمهور لتلك اللعبة ، وقيمها تختلف عن قيمه وقيم عصره ؟ وما الذي يجذبه ليحلس ساعات يتابع بكل حرص واهتمام وترقب ، ومشاعره وأحاسيسه للمصارع نارة وعليه نارة أخرى ؟

لا بد وأنه - الجمهور - قد آمن بالبطولة الفردية ، ولكن هذا لا يكون إلا إذا تخلص من الإيمان بالبطولات الجماعية .

في الحقيقة هو يؤمن بالمدأين ، بالبطولة الفردية حينما يرتد إلى العصر القديم من خلال المصارع ، ويؤمن بالبطولة الجماعية حينما يعود إلى عالمه الحديث أي أنه يؤمن بقيم العالم الذي يعيشه ولو بالخيال ، والذي يجذب المشاهد إلى أن يرتد إلى العصور القديمة ..عصور البطولة الفردية ما يروج ويحدث في الحلبة ، وهذا يكون له تأثير عظيم على عقلية ونفسية المشاهد ، (٩٥) اندماج لا يحدث في العادة سبيلية ولا بشر فحاة أو بساطة فهو بسغرق ربما وتدا وجذا بين أن نسلر ونضرق وبين أن نسنخ ونكذب ، اندماج في الحقيقة لا بشر بإرادتك أمداً وإنما أنت تجر عليه . الحراب والمأرق والدمر النار والحظيرة التي تخدق بالمصارع لدى كل خطوة .

والمشاهد لما يحدث في الحلبة ليس له خيار في أن يقتنع أو لا يقتنع . فهو محبر على الاقتناع والإيمان بكل ما يحدث أمامه . وما ينتج عنه من تأثيرات في نفس الجمهور . لأن وسيلة الاقتناع هنا ليست الذي يستطيعه أكثر الناس وأقلهم قوة وإصراراً وشجاعة . ولكن وسيلة الإقناع هنا هي الفعل ، وكل ما يحيط بهذا الفعل من مخاطرة ومحازفة قد تؤدي بحياة المصارع في لع النصر . (٩٥) .
١ وأن بلادى سحنى همدأ . وكلامر وما لا بدفعاك هذا للاقتناع . ولكمك لارد نغبر من رأيك
حب نراه بحوص المعارك الالاهية من أحل هذا الهدأ فعرض نعه لخطيرة المريت ساطة
(دفاعه عند)

وهذا الاتقاع بداية لصراع حاد بين القيم التي تحكم اللعبة ، وكلها قيم سامية وبين عالمه النافه . فهو ينشد هذا العالم المثالي الذي يعتمد أول ما يعتمد على قيم البطولة والشجاعة والجرأة والمواجهة . وهو حين يقارن بين العالمين يصاب بخيبة أمل ، فالعالم الذي يعيش فيه في الحاضر خال من كل معاني البطولة ، لذلك فليس

أمامه إلى الذهاب أو الرجوع إلى العالم القديم من خلال حلبية الصراع . (٩٧) :
 أولئك الذين يغادرون (الأريفا) مئة لزال قد حدث لعقولهم تحطمت على أثره أشياء
 في تفكيرهم وارتبكت أشياء . يخرجون وليسوا هم نفس الأشخاص الذين دخلوا ! لقد دخلوا
 مجرد قادمين من علم الناس الكثيرين الصغار حاملين قيمه ومواقفاته للبطولة وما هم
 قد خرجوا وقد أتبع لهم أن يجيوا في علم آخر . ملك عليهم تفكيرهم بحيث لا يستطيعون
 النخلص من أثره وبحيث يقتضون أبا ما كثيرة بعدها طلاب بطولته على سق التي رأوها . وباحتين
 عن أطلال ومحاطر وأعمال محبذة نشيب لها الولدان . وكأن الأريفا بالنسبة إليهم اكتساف
 في علمهم يحفروهم ويشمزون من علاقته الشريفة ومحاربه الكثيرة وضعف الرجال من هاهم
 بساقون حيث يجدون في تلك الواحة التاريخية موزحاً حياً صادقاً لعصر بطل . فتمسكهم
 المعحات وينسبون أن بقوا إلى الأبد هنا . أوحين يضطرون إلى معادرة الساحة إلى إحالة
 عالمهم المحاصر كله لتسمع على شاكلة تلك الواحة)

ثورية المصارع :

وإذا كان البعض يخرج من (الأريفا) وهو متخم بالإعجاب بتلك القيم
 العظيمة . ثم شيئاً فشيئاً وتحت نيران الواقع المعاش . فإن هذا الإعجاب يدوب
 وينمحي ولا يبقى له إلا ذكرى تراود هذا الذهن الكليل والخاطر العليل . إلا أنهم
 يخرجون وقد حفرت أحداث الأريفا في نفوسهم أثراً لا يمحي ويظل خبط
 الإعجاب والتعلق بالحلبة موصولاً لا ينقطع . بل يصل يصل الأمر أن يتمنى أن
 يكون واحداً من المصارعين . ففي داخل الحلبة يحد الشخص كل ما ينشده من
 أحلام وأمنيات . فالمصارع حينما يحمل قدره على يديه ويصبح قاب قوسين
 أو أدنى من الموت في كل لحظة يخطو الثور بقرونه المشرعة نحوه ، ولهذا يجبر

المصارع المجتمع على احترامه بل السعي إليه والتصديق له . بتلك الوسيلة المحفوفة بالمخاطر وبالموت يصل المصارع إلى ما يريد من اعتراف المجتمع به . أو يصل إلى الوجود المنشود . (٩٩) : (إيهـر جميعا أساء فقراء وأحبانا بلا أمان . خرجنهم طفولة محرومة ومداهم وعادهم المجتمع صبية وشابا . وفي المصارعة عتروا على أنفسهم . على الوسيلة التي يستطيع بنا الساب الكثرة البشر أو أس الحرام الجانح العاطل أو يفرض نفسه على المجتمع بكل ملأسه وزانه وطغائه . وكما يأتي الانتصار ومن مدة الطفولة في المصارعة باختيار المرفف الأخطر ووضع النفس فيه ثم التعلب عليه بعد شدا واقترانه . فيه أيضا في سدل فرض أنفسهم على المجتمع الذي حزينهم من كل شيء . يتنازرون الطريقة الأخطر أخطر طريقة العمل كصارعين نيران . ذلك الذي يعرضون أنفسهم فيه للموت الكدر كل لحظة ثم لا يبرون . يتفرون الموت ويسترون ويحس لهم المجتمع معترفاً ونحماً وبنقاً)

المركز والمحيط وحرية الإنسان :

والإنسان لا يتسلح بسلاح العقل فقط في صراعه مع النور . بل هناك ما يوازي أهمية وحلوة العقل . بل قوة وتأثير العقل متوقعة على هذا الاعتبار وهو امتياز الحرية . فالذي يميز الإنسان عن بقية الكائنات ما يتمتع به من حرية فهو ليس محدد على السير في طريق رسم له من قبل وإماله مطلق الحرية في الاعتبار ولديه بدائل متعددة وكثيرة . يختار من تلك البدائل ما يهديه إليه عقله وأشار القاص إلى هذا الأمر . بأن المصارع يقف في نقطة المركز من الدائرة وهذا يتيح له أن ينتقل إلى أي مكان بدون قيد وبسرعة شديدة . أما الثور فغير متوازر له الحرية أو الموقع (الاستراتيجي) . فالثور مفيد في حركته . حركته محيطية أو دائرية . وبلك نقطة ضعف في الثور تقابلها نقطة القوة لدى الإنسان . (٨٢) .

قدرة الإنسان على أن يسند حين يريد في نقطة ، وعدم قدرة الثور على الاستدارة ، هذا الفرق بين النقطة والدائرة بين المركز والمحيط ، هو الذى يصنع منطقة الأمان التى يحمي بها المصارع ويضمن ضمانا أكيدا ألا يسه الثور طالما هو داخلها لا يتعادها . وكل ما يفعله ليحقق هذا الغرض أن الثور حينما يقبل مهاجما وهدفه العباءة الحمراء يظل المصارع واقفا في مكانه ، ثمنا إلى أن يصيح الثور على مسافة نصف قطر الدائرة التى يصنعها الثور إذا دار حول محوره أى الدائرة الكائنة بين ساقه الأماميين والخلفيين . على المصارع أن ينظر إلى أن يصيح الثور منه على هذه المسافة لأنه لو تحرك والثور على بعد أكبر ففي استطاعة الثور أن يغير اتجاهه وسحرف ويصيه ، أما حين تكون بينهما هذه المسافة وسحرف المصارع فإن الثور إذا انحرف فهو لا يستطيع مطلقا أن يصله أو يصيبه لأن الثور حينئذ يكون قد اجتار المكان الذى انحرف إليه المصارع حتى أصح المصارع بإحده منتصف طئه ، ويعرض أن الثور استطاع أن يوقف اندفاعه فورا ، فهو لا يمتلك أيضا أن يصيب الرجل وعلبه لكل بفعل أن يسند لمواجهته برأسه .

فلا فائدة ولا جدوى من العقل بدون الحرية . وكأن العقل والحرية لفظان متلازمان ، لا يمكن تخيل أحدهما بدون الآخر . فلن يخرج العقل طاقاته المكبوتة ويغير ويطور إلا في جو مشبع بالحرية ، فكل الكائنات لها عقل ، وتستخدم عقليها كما يستخدمه الإنسان ، ولكن الإنسان منح الحرية وهي ليست متوافرة للكائنات الأخرى ، وبالعقل والحرية استطاع الإنسان أن يبني حضارته ويرتقى درجات واسعة وكثيرة في سلم التطور والتقدم .

قدريّة المصير :

أوثق الصلات تلك التي تنشأ بين إنسا وآخر أثناء مواجهة الإنسان قدره ومصيره . فتلك أخرج وأدق اللحظات المصيرية . وليس مهما أن نضع اسما لتلك الصلة . أو أن تكون متبادلة بين الطرفين .

وقد نشأت علاقة بين القاص والمصارع . وقد تعرضت تلك العلاقة للتوتر والتطور باطراد الأحداث والمواقف في حلبة الصراع .

والخط الدرامي الذي بدأ أول الرواية بتوجس القاص أن اليوم سيكون نهاية المصارع . وحتى التوجس من جانب القاص هو الذي أوجد تلك العلاقة بين القاص والمصارعة .

ففي بداية الأمر أوشك المصارع أن يلقي حتفه . حينما نهض الثور فجأة وقد أوشك على الموت حينما احترق سيف المصارع صدره . وعندما نهض الثور متحيا إلى المصارع اشتكت ثياب المصارع بقرون الثور وألقاه النور أرضا واستطاع المصارع أن يتعافى - بعد ذلك - القرون القاتلة . وبالرغم من أنه سقط بعد ذلك ووقف مواجهها للثور . إلا أن السقطة الأخيرة كانت بمثابة استسلام من المصارع لقرون الثور . فقد كان هناك متسع من الوقت ليقف المصارع لمواجهة الثور . ولكنه لم يقف ولم يواجه الثور . أما لماذا لم يقف ولماذا لم يقاوم . فهو قدر المصارع أن تكون نهايته في تلك اللحظة وفي هذا المكان وبذلك السبب . وكأن المصارع قد عرف أن تلك اللحظة لحظة المصير . وأن هذا قدر لا فرار منه ولا مواجهة إلا بالاستسلام والخضوع . هي نفس اللحظة التي مرت بها (عزيزة) حينما

استسلمت (لمحمد بن قمرين) في رواية الحرام ، وأطلق القاص على تلك اللحظة (سهم الله) فهو القضاء ولا رد ولا مقاومة لقضاء الله . فكل مقاومة الإنسان والقدرة على الهرب تختفي ولا يبقى إلا الاستسلام المطلق لقدره . (١٢١) :

١ ولكنه لم يقف طر بعنديل ولا حى رفع ذراعاً أو حرك ساقاً . رقدة ولو أنها لم تأخذ وقتاً إلا أنها أثارت استنكاراً فقد أحس الجميع أنها رقدة استسلام غريبة للثور القادم المقص أو بالأصح لما وراء هذا الثور القادم المقص . وكأننا نفعل صاعته وجدانية شاملة مكسحة في ذلك الجزء من الرقت أحسست لقرط نأزري معه في معركته لقرط ننى لموقفه . لقرة الخط الذي يعمل بيني وبينه والذي كاد يسحب منى الروح لئحل بجسده أحسست وكأننا الشلل الذي انما قد شلني أنا الآخر وأصابني ... شلل لا تفسير له ولا نهر . شلل ساعة حدونه لا نستطيع أدا نيمه أو إدراكه . لا تخس به إلا هناك حينما تجلس مثلي على مكتب . نستعيد ما حدث وأملك الرقت مسعاً للتأمل والتخليل والتجديد لطالما سمعت عن تلك اللحظة وقالها الناس أمامي وسخرت من قهلم . تلك التي يقولون عنها أن سهم الله قد نفذ فأوقت التفكير وسئل الجسد وأعنى الروح)

وكان هناك علاقة وطيدة بين القاص وبين المصارع . تلك العلاقة أملت عليه الشعور بالخوف والبلع والإشفاق على مصير المصارع . ومثل تلك المشاعر أو تلك العلاقة لا تنبت إلا حينما يتعرض الإنسان لتلك المواقف الفاصلة التي تحدد بقاءه أو عدم بقاءه . والمشاعر هنا لا تختلف إن كان هذا الإنسان أخي أو ابني أو صديقي أو لا تربطني به أي علاقة . فهذا لا يؤثر في حدة المشاعر وكثافة الإحساس . فتلك الوشيجة التي تربط بين إنسان - أي إنسان - وإنسان . تفرص وحدة الإحساس فما يصيب فرداً من الجنس الإنساني كأنه أصاب الجنس كله . (١٢٥) :

(القوة العاشمة الجاهلة الحقاء هي التي نملك . والصحة هي الكائن الإنسان الراقى
المشاعر المرفف الراقه تحت رحمة الوحش الذي لا يرحم . كمر بدا لي الطفل ضعيفا في تلك
اللحظة ، طفلا مسمى عبرا .. كمر علت في عروقي دماء أعمق وأقوى القربات ، قرابة الإنسان
السرى بالإنسان السرى ، تلك التي نرفعها بلا وعي أو إرادة لنجدة المأروم إذا استغاث
وحس إذا لم يستغيث .. لم يكن ما كنت أحسه من هلع لختلف كثيرا لرأى المطعون كان
اسنى أو أحيى أو أسي . فقد كنت في أقصى درجات الهلع وأقصى درجات العصبه وأحر ما
استطعت من حرب كنت أصيق . وأقوى ما أستطيعه من هلع كنت أحتد على عدو المبادر
وعدوى وعدو كل من في الساحة وعدو الشر . القوة الفاهرة العمياء العائمة - أبة قوة عمياء
عائمة - وليس عليها هي بالذات ولكن عليها حين رايها أفرى بكثير ما وأقدر . حين رايها
في انصار عارم مغموس ونس في هيدة ساحقة باردة واقعة)

ويحمل المصارع إلى المستشفى وهو متأرجح بين الحياة والموت . وتمصي
الحياة . ولا يعنى أحد ما حدث . فكل المتفرجين في (الأرينا) غادروها بدون أدنى
اهتمام بمصير المصارع . متناسيين أن ما لقاه المصارع هو نفسه ما قد يلقاه
أي إنسان .

فذلك الإنسان الذي تحدى الطبيعة وانتصروبنى وشيد وصعد وغاصر . وهذا
التناسق في التكوين والجمال في الشكل والقدرة على التفكير والانتكار في التغيير
هذا الكائن لا يملك مصيره . والقاص إذ يفكر في هذا بحمل طاقات من الحزن
لا يجد لنا منفذا . فهو لا يملك أن يفعل شيئا . (١٣٨) .

(ما هذا الجون ؟ وماذا أحمل وحدي تلك الجارة السوداء الخائفة في صدري ؟ وهل أنا
مسئول عن أرواح الناس وما يحدث لهم . وماذا كان باستطاعتي أن أفعل لم أفضله لأوقف
الكارثة ؟) .

القاص لا يحزن على مصير المصارع . ولكنه يحزن على مصير كل إنسان يختار
كل شيء بمطلق حريته ويملك كل ما حوله . ولكنه لا يملك تقرير مصيره ولا يعرف
متى ولا أين سينتهي وجوده .

obeikandi.com

الفصل الخامس

نيويورك (١٠)

- ❖ صدام حضارى .
- ❖ الإنسان .
- ❖ المال .
- ❖ الوجود الداعر .
- ❖ القبر .

obeikandi.com

صدام حضاري :

كما تجمع قطرة المياه كل خصائص وصفات المحيط المجلوبة منه ، كذلك يحمل الفرد كل خصائص الحضارة التي ينتمي إليها ، فهو لسانها المعبر عن كل ظواهرها وخوافيها .

فإذا ما التقى شخصان كل منهما ينتمي إلى حضارتين مختلفتين فسيحدث بينهما صدام ن وهو في حقيقته ليس صدام شخصين بقدر ما هو صدام حضارتين ، كل منهما يريد أن يحتوي الآخر ، وكل من الشخصين يعضد موقفه أمام الآخر . بأن يعرض جوهر حضارته ، ويدافع عنها بضراوة ، بنفس ضراوة هجومه على حضارة الشخص الآخر .

وقد تحتوي إحدى الحضارتين الحضارة الأخرى إذا كان بينهما من وشائج القربى وأواصر التقارب ما يجعل إحدى الحضارتين لا تجد غضاظة في أن تحتوى حينئذ لا نقول عنه صدام حضاري ولكنه لقاء حدث بعد تفاهم وانسجام ثم احتواء .

أما إذا لم يكن هناك من وشائج القربى أو تشابه في الأصول أو تقارب في العروق ، كان تكون حضارة شرقية وأخرى غربية ، فهنا يكون الصدام ؛ لأن كل منهما له أصوله التي يختلف فيها عن الآخر ، وكما نرى . (الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا) .

وكان لقاء بين القاص وبين تلك المعالجة النفسية أو التي تعمل بالبناء في أكبر مدينة تمثل قمة الحضارة الغربية (نيويورك) . والرواية تحاول جاهدة أن

تبين هذا الاختلاف الحاد بين الشخصيتين في القيم والمعايير التي تحكم كل شخصية ، والتي يستمدّها كل منهما من حضارته .

وكل حضارة تحكمها فلسفة تحدد لها مقوماتها وأمرها العامة والخاصة التي تحدد تمايزها عن بقية الحضارات ، وهذا الاختلاف الحادث بين الشخصيتين أو اختلاف معاييرهم وقيمهم ونظرتهم للإنسان والحياة حادث لأن كل منهم يصدر عن مصدر غير الذي يصدر عنه الآخر .

فما هي التبر التي تحكم المجتمع الأمريكي التي نعير فيه الشخصية ؟

في هذا المجتمع ليس هناك ثبات لأي قيمة من القيم ، كل شيء حاض للبحث والتجريب (الطولم) ليس له وجود في هذا المجتمع . الجراءة والمعامرة والتغيير دافع لكل فرد من الأفراد . والمعيار الحق والقيمة الجديرة بالاهتمام هي المنفعة ، ما يعود على الفرد بالنعف ، والنعف المادي العاجل في الدنيا . تلك خلاصة فلسفة المجتمع ، التي نظرياً فلسفة الرحمانية : " والتي تفترض عدم الثبات في القيم والمعايير ، وتفترض - بل نستوجب - ضرورة تغييرها لتلاءم الظروف القائمة ، واذن فكل فرد مسئول أمام المشكلة التي تعترضه مسئول عن حلها حلاً موفياً ، فيكون هذا الحل الموفق هو الصواب والحق . فاعترافنا أن الحق هو بحاح التنفد وليس يعي الأهدا أنما يضع على الناس تبعه . هي أن ينعضوا أيديهم من الاعتقادات الحامدة في السياسة والخلاق وأن يخضعوا أعز معتقداتهم للاحتبار العملي الذي يجعل

النتائج مقياس الحق وأن هذا التغيير في وجهة النظر لیتضمن تغيراً في مركز السلطة وفي وسائل اتخاذ القرارات في حياة المجتمع^(١).

فالمفاهيم المسبقة للأخلاق والقيم مرفوضة إلا بعد أن تثبت فائدتها أو نجاحها العملي في حياة الفرد والمجتمع ، فليس هناك قوة عليا تملّي على الإنسان الحق والواجب والمفروض فكل تلك التسميات لا تهبط من عل وإنما تنبت من أعماق التجربة وشواهد الواقع ، وهما اللذان يعطيانها قوة الاعتقاد والرسوخ في وجدان الإنسان هناك ، وهذه المقولة نعطيها في الهابة إنساناً له مفهوم يتخذه تلك الفلسفة لكل من :

❖ الإنسان .

❖ القيم .

❖ المال .

وتلك المفاهيم لا انفصال بينها ، فالإنسان هو الذي يضع القيمة ويعلو من شأنها ، وكذلك يعلو من قيمة المال ويجعله غاية الغايات أو يجعله وسيلة لغاية أسمى وأرقى .

^١ - حياة الفكر في العالم الجديد - د . زكي نجيب محمود - صفة (١٧٢) .

الإنسان :

سأل القاص تلك المرأة عن عملها فلم تجر حرجا أو عتصامة في أن تخبره عن عملها :
(أجل ... أجل ... لاختصر وقتي ووقتك أنا (call girl) أتعرف معنى هذا لأختصر
وقتي أكثر ... أنا ممن يسمونهم (المومسات) .

هذا العمل بالنسبة لها لم تجد أي خجل أن تصارح به القاص ، فهو عمل
كسقية الأعمال . وهو عمل له احترامه لأنه له عائد مادي . وقد اختارت تلك المرأة
تلك المهنة بحريتها ، فليس هناك من قيد أو لوم . ولم تخجل ولم تحاول أن تخفف
من وقاحة اسم مهنتها . لأن هذا ما تمارسه بالفعل . إذن فلماذا تمارس شيء
وتطلق عليه اسما آخر غير مسماه ؟!

وحينما عرضت عليه المرأة خدماتها وأسعار تلك الخدمات رفض القاص
مجرد مناقشتها . وتعجب كيف تنحط قيمة الإنسان إلى هذا الدرك من الضعة
والدناءة وأن تبع حسدها ؟ هذا يحدث في بلاد عنوان عن الحضارة وتحمل لواء
التقدم . (٢٠) هو إن ما أزعجني في كلامك أنني تبينت منه بل وضعف
أصدي على نوع من التحليل المروع . لا أقول حضارتكم ولكن أحظر ما في هذه
الحضارة وأي حضارة المرأة فيكم . أنتن النساء محربات روحيا وعقليا وفلسفة
والدي بدلهي أنكن تستطعن إيجاد الزائن من الرجال رجال نشئوا في مجتمع
معروض أنه راق وأنه غادر تلك المراحل البدائية التجارية الحربية من علاقة
الرجل بالمرأة . كيف يقبل الرجل يعيش في أرقى بلاد العالم في النصف الثاني من
القرن العشرين أن يحصل على امرأة ، جسد امرأة بصرف النظر عن إي إحساس
آخر لديها مقابل بضعة دولارات ينقدها إياها لأنها قبلت أن تتعري له من داخلها

وخارجها . أني لمشمئز من حضارة تصعد بسمو علمها إلى القمر ولا زالت تنحط بجسدها إلى مدارك الرقيق الأبيض ، والأسود ، مشمئز لامرأة مثلك وأنت لست سوى واحدة من جيش عرمرم . امرأة ذكية مثقفة واسعة الاطلاع والخبرة جميلة أجمل من ممثلات أي سينما أن تزاول عملاً يمكن أن تفعله أي متخلفة عقلية فهو لا يحتاج إلا... طبعاً أنت تفهمين) .

فالقاص - هنا - يحكم على المرأة وعملها بقيمه هو ومعايير الحضارة التي ينتمي إليها . تلك الحضارة التي تعلو بقيمة الإنسان وتحيطه بهالة سامية من القيم والأخلاق . تمنعه من أن ينزل من مكانته إلى مكانة دنيا . فهذا الفعل - البغاء - مزمر مرفوض في عرف القاص وفي دستور حضارته وقيم مجتمع . لأنه لا ينظر تلك النظرة التي تنظر بها المرأة . المعيار النفعي المادي للقيمة ، بينما القاص له رأي آخر . فهو ينظر إلى الفعل بغض النظر عن العائد المادي له . بل يحذ الفعل أن لا يكون له عائد مادي على فاعله وهذا ما نطلق عليه اسم الفضيلة . يحرص الناس - في الشرق - على الحرص عليها والتحلي بها . " ومن هنا كذلك كان من غير المقبول عندنا أن يقال عن الأخلاق مدارها - في نهاية الأمر - منفعة تعود على الناس لأننا نرى أن الفضيلة هي جراءة نفسها أرادها لنا الله وعقلناها . فالفعل عندما يعد فاضلاً في ذاته بغض النظر عن نتائجها . أمي ضارة بصاحب الفعل أم ناعمة له . وبعبارة أخرى فإننا نقيم الأخلاق على أساس الواجب لا على أساس العائدة وهذا لا ينفي أن الواجب قد يجيء مصحوباً كذلك بنتائج ناعمة فوق كونها واحداً . ولكنه واجب يؤدي قبل أن نفكر فيما يترتب عليه من ضر ونفع " (١) .

١- تحديد الفكر العربي - د . زكي نجيب محمود - صفحة (٢٧٧)

اختلاف شاسع بين من يضع المنفعة المادية معياراً بها يحدد قيمة الفعل وبين من يضع حكم السماء في تقييم الفعل . فالعيار الأول مهما كان الفعل ينتقص من قيمة الإنسان أو لا يتناسب مع آدميته إلا أنه له قيمته لأنه يتوافق وذلك المعيار، وهذا ما جعل المرأة تتحدث عن مهنتها أمام القاص كحديث الدكتور أو المهندس عن مهنتهما ، فالدعارة - هنا - تتساوى والهندسة والطب . لأنها تقف معهما أمام ذلك المعيار .

حتى ولو كان لتلك المهنة - إن جاز لنا أن نقول ذلك - بعض الاحتقار الذي ينظر المجتمع إليها . إلا أن الحرية التي يتمتع بها الفرد تجعله حراً في كل شيء حتى في بيع جسده للأخرين لقاء من . وتلك - في عرفنا - ليست بالحرية وإساءة نوع من التحلل . ففي الوقت الذي يبيع فيه الإنسان نفسه يكون فقد صفاته الإنسانية وبالتالي هدد تلك القيمة في المجتمع كله . ولا ينبغي أن تمنح حرية لإنسان بحرح بها نفسه من مدارج الإنسانية . (٦٢) : (هر أنا الذي سبقول لك هذه المرد كلماتمجرد كلمات دعوة عظيمة كدعوة الحرية والتحرر تصح تبريراً للتصرف في جسم الإنسان بطريقة غير إنسانيةهل هذا هو التحرر؟

مري طبعاً....حريتي أن أضع نفسي .

مري هذه ليست حرية .. حرية أن يبيع الإنسان جسده . إنها أولاً تحريم الإنسان إلى تجارة . إلى تاحر ورقبق أنيض . ثم تحويل هذا التاحر المعروف - يتاحر في أحساد الآخرين إلى تاحر يتاجر في نفسه هو...يطرحها كأبي سلعة تلب

بطاقة السعرومن يدفع يشتري ويحصل . هل تصورين هذا ؟ يحصل عليك كلك على روحك بأدق خلجاتها . إذ هو يدخل سر أسرارك) .

وحينما ينظر المجتمع إلى الإنسان تلك النظرة ، ويؤيدها الفرد . يصبح في عداد السلع . واليوم الذي يحدث فيه ذلك هو يوم إهدار الأدمية ، والمكان الذي يحدث فيه ذلك هو مقبرة لكل تلك القيم والمبادئ التي استلهمتها الإنسانية خلال تاريخها الطويل .

وكانت (مايل جراهام) تعمل معالجة سمية في إحدى مستشفيات نيويورك ولكنها تركت هذا العمل لتعمل بغيا . لأنه يدر عليها أكثر مما لو كانت تعمل في المستشفى ، متعلقة بأن هذا عمل وهذا أيضا عمل . وهذا الانتقال لا غبار عليه مع أن عملها في المستشفى عمل إنساني ، أما خارج المستشفى فهو البغاء بعينه لأنه يحقق المنفعة . وتلك المنفعة لا تستهدف الإغلاء من قيمة الإنسان ، وإنما تنزل به إلى أسفل سافلين ، (١٦٣) : ١ هر : نحن أمام الإنسان الذي حوله عالمكم الذي يسمونه للأسف إلى بضاعة إلى ترس إلى جزء من آلة إنتاج واستهلاك كبرى اسمها المحتنع وما دامت كل الأعمال تتشابه في رفض الإنسان أصلا ليا فيصبح الانتقال من عمل إلى عمل مسألة لا تزعم أحدا . ولكنك لم تنتقلي من إنسانة تعمل معالجة نفسية إلى إنسانة تعمل بغية أنت انتقلت من عمل عظيم يدي روحا لانك بساعدين أرواها معذبة إلى عمل يخرّب روحك إلى عمل يميّتك حبة . حبة أسكنب روحها جسدا تستغل صاحبته شققا مفروشة مع عشرة في المائة خدمة . جسدا الخدمة فيه ممتازة جدا فالغام دي شامير مثقفة معالجة متعلمة . قطعنا يفضل أي ربيون السكن في شقتها) .

تناقض حاد في مجتمع وصل إلى قمة التحضر وتطلق فيه أحدث نظريات العلم والتكنولوجيا ومع ذلك ما زالت هناك بقايا من النظرة البيغائية للإنسان متخلفة إليه من عصر الرقيق الأبيض ، لم يعد الإنسان غاية الغايات ، ولم يعد هو المستهدف من كل نشاط أو فعل وإنما دُرج ضمن الوسائل التي تصل إلى غايات أبعد مثل المال أو غيره . وأصبح الوجود الإنساني فارغا وأجوف لا يشعر الإنسان بثرائه أو امتلائه ، لأنه استنفد جميع طاقاته وإمكاناته .

المال :

كل الأنشطة وكل القيم بما فيها الإنسان تستهدف غاية واحدة هي المال وقيمة العمل تقاس بقيمة ما يدره من مال ، هذا المنطق الذي كانت تتحدث به للناصر . وكان على طرفي نقيض منها ، لأنه يرى عكس ما تراه ، يرى أن المال لا يزيد عن كونه وسيلة ، ولا يكثر بالمال قدر اكرثائه بالوسيلة التي حصل من خلالها على المال . ومن خلال ملاحقة المرأة له وذهابها إليه في الفندق ظن أن في الأمر شيئاً فقد تكون عميلة لإحدى المنظمات التي تريد اغتياله أو تريد الحصول على معلومات ما . وحينما كاشفها بالأمر قالت له : (٤٦) : (هي : ولو فرض أنني عميلة أعتقد أنني وصلت في عشقتك إلى الدرجة التي أعترف لك فيها أنني مدسوسة عليك ؟ ثم أحب أن أقول لك أنا ليس لدي مانع مطلقاً أن أعمل مع أي جهة تدفع بسخاء فالنقود أصححت هي الولاء الأعظم ، وحبابة الترف حلم أي امرأة مسحوقة هنا في نيويورك . وأي رجل حتى لو كان الكرسي الكهربائي في نهايتها) .

فلا بد أن تسير في هذا الطريق الذي دُبحت كل القيم والمبادئ على جانبيه ولم يعد يضى ذلك الطريق سوى طريق المال . يأخذ بمجامع الأبصار . ويظل الإنسان مأحوداً بهذا الطريق الزائف ويسير على هداه حتى ولو كان آخر الطريق هو الكرسي الكهربائي . فهو أعمى عن كل شيء إلا عن مقدار ما سيحصل عليه من مال من أي طريق وبأي وسيلة وبذلك يكون إنساناً راقباً متقدماً متحضراً كما نرى . (٦٢)
(الأرقى عندي هو الأكثر نقوداً بأقل جهد) .

الوجود الداعر :

الوجود الإنساني أعلى قيمة لدى الإنسان . وكل ما حول الإنسان يتخذ وسيلة لغاية واحدة هي الوجود . ويوجد الإنسان ليستمتع بكل طاقات وإشعاعات هذا الوجود وبثرائه غير المتناهي . أما أن يسخر هذا الوجود لممارسة الحب فحسب أو لجلب كم من المال . فهو نوع من الدعارة الوجودية . وسعار المال دفع الإنسان أن يستبدل حتى وجوده في سبيل الحصول عليه . وليتها صفقة رابحة . ولكنها صفقة المغنون . فقد استبدل أثن شيء يملكه بأثفه شيء لا يملكه . وبذلك يصبح الوجود أخوف خاويًا من كل معنى ولن يعوضه المال أو كل نتاج الحضارة أن يعيد ثراء وجوده . وتلك نقيصة من نقائص تلك الحضارة التي قطعت شوطًا كبيرًا في طريق التقدم والتحضر ونسيت الإنسان وكبانه الوجودي ومتطلبات هذا الوجود . (١)

(لقد نشل الغرب نفسه - وهو صانع العلم الحديث - في أن يقيم لنفسه مثل هذا اللقاء بين الطرفين . فكان له العلم ولكنه فقد الإنسان . وليس هذا الاتهام من عندنا بل يكفي أن تتنح الأدب في أوروبا وأمريكا اليوم - والأدب هو المرأة المصورة للإنسان وما يعمل في نفسه - لنرى ما يحسه الناس هناك في دخائل صدورهم من ملل وسأم وضيق وحيرة وضباع . إن الإنسان هناك يساير عصره العلمي في مقتضياته ولكنه لا يجد الفراغ ليخلو إلى نفسه ويصغى إليها كأنما كل فرد هناك هو فاوست أغراء الشيطان بأن يبيع نفسه من أجل علم يحصله . أو مال يكسبه . أو قوة يستبد بها ويطلقى . ولسنا نقول ذلك وبإدهاننا أقل درة في الغض من شأن العلم والمال والقوة . بل نقوله لتؤكد ضرورة أن يضاف إليها شيء أحر هو القيم الحلقية

والجمالية التي تجعل من الإنسان إنسانا بعد أن جعل منه المال والعلم والقوة إنسانا بالطلول والعرض) .

إنسان تلك الحضارة خاو من الداخل ، لذلك يشعر بهذا النقص ، فيسارع ببيهاهم نفسه أنه موجود من خلال ممارسة أي عمل من الأعمال ، (أنا أفعل كذا إذن أنا موجود) ناسين أن من المحال أن يملأ فعل واحد الوجود الإنساني الرحب الواسع ، أو أن يناط الوجود الإنساني بفعل مثلما أرادت المرأة أن تثبت للخاص أنها موجودة وتشعر بهذا الوجود وتستمتع به لأنها تمارس الحب ، (٦٦) : (هي ، أنا أمارس الحب فأنا موجودة .

هو : للأسف أنت موجودة ، وإما ليس لأنك تمارسين الحب ، في الحقيقة أنت موجودة مجرد موجودة لأنك لا تمارسين أحلى وأروع أنواع الوجود المحبوب المرغوب . أنا أمارس الحب فأنا موجودة ؟! هل تقبل الطفلة منطلق الطفلة أن يدفع لها مقابل نقدي لقاء حبها لعروستها أو لقطعتها ؟ هل لا تحس بوجودها إلا وهي فقط تبيع الحب وقتهن الجسد وتعتدي على كبرياتها ، هي قتلها أما عمياء لا ترى شيئا بالمرّة أقصد عمياء سلوكيا ، أو مفتحة الأعين إنما لا ترى من الكون إلا حافلة الرجل وأجر الساعة ، هذه هي النهاية المحتمة لتقييم الرجل أو المرأة لنفسه ولغيره بحساب (الدولار - ساعة) . مادام قد وضعنا على أول الطريق دولار - ساعة فالبغاء هو النهاية المحتمة) .

وهناك أكذوبة بتمسك بها هؤلاء القوم أو تلك المرأة ، أن لا ضرر ولا ضرار فهي تستمتع بممارسة الحب وأيضا لا تضر أحداً بتلك الممارسة ، نعم ، هذا يؤكد

طاهر الأمر أما حقيقته فهو يؤكد أن هناك ضرراً وصراراً أيضاً ، فالإنسان ليس حراً في التصرف فيما يخص جانبه الإنساني ، لأن تلك قسمة مشتركة مع الناس جميعهم . ولأن الأمر في النهاية أمر قيمة إنسانية ، فإن مس تلك القيمة من أي فرد ، فقد ألحق الضرر بأفراد الجنس البشري كلهم بدون استثناء ، ولكن حينما تستأثر مشاعر الأنانية والذاتية على الفرد لا يكون ثمة قيمة أو شيء من هذا القبيل لا يكون هناك إلا ذلك الفرد ورغباته الدنيئة وملذاته الوضيعة ، (٥٥) : (١) : الإنسان يا وأنسة أو يا مدام أو يا دكتورة هو في النهاية بعض القيم خلاص انتهت عندكم القيمة تماما في نيويورك حتى لم يسق إلا الدولار قيمة والمتعة والأنانية الذاتية هي الهدف .

هي . الدولار قيمة هذا صحيح ، أما المتعة فما الضرر أن أستمتع طالما أنني أمتع طرفاً آخر ولا أضر أحداً ؟) .

فالحرية الفردية سلاح ذو حدين قد يستخدمها الإنسان في نفع نفسه ونفع المجتمع ، ولكن حينما تستحوذ علينا الأثرة فلا يكون هناك مصلحة المجتمع ولا يكثر الفرد بها بل قد يمارس ما تملبه عليه شهواته ورغباته وبذلك يكون بسبيل تدمير نفسه وتقويض ذاته .

القيم :

هذا المجتمع يقف موقفا غريبا من القيم ، فهو يرى أنها ظواهر للمرض وأن الإنسان المتمسك بتلك القيم مريض ، ينبغي معالجته ليشفى مما ألم به ، فهو شاذ أو متأخر ، ما زال يتمسك بقيم لم يعد لها وجود ، بعد أن فقدت تأثيرها في إنسان القرن العشرين وما بعده ، وفقدت سلطانها ونفوذها في ابن الحضارة الغربية في أمريكا ، فكل تلك القيم في نظره تعتبر معوقات وعقبات أمام التحضر وينبغي للإنسان إذا أراد السير في ركب الحضارة - التخلص من كل تلك القيود التي تقيد الإنسان كما يقيد الحبل الدابة ، فليس هناك دليل أو مبادئ تحدد للإنسان تلك القيم وتبين أهميتها ليس في حياته المادية فحسب بل في حياته الوجدانية والروحية ، فالإنسان جسد وروح ، وكما هو في مسيس الحاجة إلى ما يغذي جسده ، أيضا في مسيس الحاجة إلى ما يغذي روحه ، وإلا تغير مفهوم الإنسان لدينا ليصبح حسداً فقط ، وربما هذا راجع إلى أن كل فلسفات - أو معطما - أولت اهتماما بالعقل والعلم وكل فروعها ، ونسبت في غمار انشغالها هذا أن تضع للإنسان - كما وضعت للعلم والتكنولوجيا - فلسفة تحدد المفهوم الحق والشامل للإنسان.

" فنجد الفلسفة السائدة فلسفة تحليل العلم وقضاياها لترى متى تكون الصبغة العلمية المعينة صادقة ومتى لا تكون ولكنها لا تعاب بالإنسان إذ تترك أمر الإنسان للأدب والفن فلنا عندئذ أن نقول لهم : لا أننا نسايركم في فلسفة العلم

لكننا نوجب أن تضاف إليها فلسفة للإنسان الحالي الذي يبيض في صدره قلب
ويطمح في حياته إلى أبعد الغايات " (١).

وهذا ما دفع (باميليا جراهام) أن تنتهم القاص بالمرض حينما رأت أنه
متمسك بما يسمى (القيم) . فلم يدخر القاص وسعا في مقارعتها بالحجة
(٦٥) : (سي ، منتسمة في سخرية : أنا إذن مريضة يا طليبي السؤال هو
في الحقيقة : من فينا المريض ؟ لماذا لا تكون أنت المريض بهذه الأفكار التي تزحم
بها رأسك . مريض بقيمك ومثلك ، وأكون أنا الطليبية . لماذا لا يكون الوضع فعلا
هكذا ؟

مر . أنا يا مدام (قالها هذه المرة قاصدا) متحضرا جدا . إن الإنسان ليس
فقط أرقى الكائنات ولكنه أخطرها على الإطلاق أخطرها حتى على نفسه ، وأنه
ما لم يزود هذا الإنسان أو بالأصح ينقى من درات الغبار حتى درات الغبار التي
تعلق بهذا الشيء الخبأ حلف حديتي لاستحالي من أرقى إلى أخطر وأخط كان
في الوجود في عكس اتجاه التطور الخلاق . يدمر بادئا أو منتهيا بنفسه ومن حوله
وكل أولئك الذين كان من الممكن أن يكونوا أحياء وأصدقاءه وحتى معاربه) .

وإن كانت تفهم معنى الأخلاق فهما غريبا ، فهي تراء الصدق مع النفس
محسب . وتلك فضيلة لا تكمل إلا إذا كانت تحرص على مكاة النفس الإنسانية
(٥٧) - (مي : أنت أخلاقي جدا .

١ - تجديد الفكر العربي - د زكي نجيب محمود - (٢٨٦)

مر: وهذا منتهى التحضر في رأي . فالأخلاق . قمة الخلاق قمة التحضر
هي الصدق مع النفس .

مر: وعلى هذا المقياس نفسه فأنا الأخرى أخلاقية جداً) .

والقيم ليست منفصلة على الإنسان ، وليست نوعاً من الترف ، ولكنها
في صميم تكوينه وأحد أعمدة كيانه الأدمي الذي يشهد له انه ابن حضارة إنسانية
مرت عليه قرون حتى وصل إلى تلك الدرجة من هذا البناء القيمي الذي يحافظ على
أدمية الإنسان ، ويحول بينه وبين التردّي في هوة الانحلال . وحينما تصحح المرأة
منتدلة سهلة المنال لكل من شاء ، فإنها تدمر تلك الأنثى الإنسانية التي يعتمد
عليها في بقاء ونقاء الجنس البشري ، ولأنها يناط بها هذا الدور الخطير مند وحوود
الإسنان على الأرض ، فقد تطورت وارتقت تلك الأنثى كما ارتقت الإنسانية
وأصحت الإنسانية تتشكل وتتحور بما تتشكل عليه تلك الأنثى ، فمنها يتفرع
الجنس البشري كله ، فهي بمثابة الجذر ، وإذا أصاب الجذر مرضاً انتقل تأثيره
إلى بقية الساق والفروع . وأصحت الشجرة كلها مهددة بالسقوط بعدما دبت فيها
عوامل الفناء ، (٦٠ - ٦١) (مر: الأنثى التي كلفت الحياة ملايين السنين من
الإيغال في التعديل والتعديل حتى أصبحت قمة الكون النامية الأنثوية أرقى إبداع
للخالق . بقرار أحمر ليس طفلياً بل تافهاً وحقيراً ، فالأطفال أعظم بكثير وأكثر
براءة وبظافة بقرار كهذا تلغي ملايين السنين من التطور وتقدّف نفسها ساقطة
هاوية إلى حيث توقف التطور بالقطط والكلاب والفئران ، حتى هذه الحيوانات
تحلّى بالجسم ببطولة معركة تدور بين الذكّرين حول القطعة وهي الهدية
هي الوسام . والفائز هو فعلاً من يستحقها ... إنها أبداً لا تطلب مقدماً أو مؤخرًا

أو تأخذ أي شيء ، إنها بكل الجلال والسخاء تعطي ما نقيس بالثمن والساعة نحن لا نتحول إلى بضاعة ذات سعر ، وتفخرين أنت ببدا باعتبارها مهنة كسب أكبر قدر من النقود في أقصر وقت تكسبين الدولارات هذا صحيح ، ولكن الحسبة مغلوطة تماما ، فأنت حتى لو أوغلنا في التشبيه ، رأس مال تكسبين مائة عاجلة وتحسرين مئات آلاف من رأس مالك . وطريقة سهلة جدا تكسب النقود ولكنها كمهنة من أمتهم احتساء وجرع ماء النار في دقيقة يأخذ مائة دولار ولكن الكارثة هي كم ما يحدثه الداخل في أحشائه من تهريؤ وتآكل في صميم روحه وداته بل وفي جسده) .

وكانت رسالة الدكتور اد لثلك (نايللا حراهامر) عموار السلوك الإنساني عند الحيوان والقاعدة لديها هو الحيوان ، نتحدث عن السلوك الإنساني عند الحيوان . لأن القيم ليس من خصائصه . وهو كائن متخلف ، أما الإنسان فقد تعدى تلك المرحلة ، نرك مرحلة التخلف والتأخر وترك وراءه كل ما كان يربطه من تلك المرحلة من قيم ومبادئ ومعايير ، وحينما يضع القاص تلك الحياة القاصه والوجود الأسن الصحل إن استمتعها هذا لن يدوم . فعالمنا يرول هذا الجمال الذي يجعل الرجال راغبين فيها رغبة الديدان للحيفة ، بدأت تنتهمه أنه مومس وبدأت تباحمه حينما رأت أن الضائق يضيق حولها . (٦٩) هي . نقصد أساسا ما تسميه بلغتك القيم العليا .

شي وما تسميه أنت خصائص الحيوان .

أي حياة لذيذة تلك التي تدفعين فيها الثمن - كدين شيلوك - من لحمك ودمك ! أنها تصبح كمدمن الهيروين الذي يبيع كل يوم أصعاً من أصابعه ليظفر الجرعة . اسمحي لي يا سيدتي أنت مريضة جداً هياً لك مرضك اقتناعاً كاملاً بحياة تعرفين من أعمق أعماقك أنها ملفقة وكاذبة وملينة بخداع النفس .

هي : لقد بدأت أمل حديثك .

مر : لأنه اقترب من نقطة جنونك الحساسة . لقد صغت لنفسك كما تقولين الحياة المثلى وتحبين الرجال وتغيير الرجال . وفوق هذا تكسين نقوداً وسهرات وكل يوم وجه وجسد جديد ولكنك تستيقظين ذات صباح لتجدي أنه لا جديد بالمرة لا وجه ولا جسد ولا حتى إنسان ليقول لك صباح الخير ، أنت كما تبدين في الثلاثين . تصوري كم إنساناً سيحضر عيد ميلادك الخامس والأربعين بل حتى الأربعين .

هي : لقد بدأت تصبح مملاً جداً . ماذا تريد مني ؟ ماذا تأخذ علي ؟

مر : نفس ما تفخرين به أنك مومس .

هي : ولكنك أنت الآخر مومس . وكل هؤلاء الحليقون المتسمون المتحدثون في همس مؤذوب خافت كل من ترى من الرجال والنساء حولك مومسات ومومسون) .

وحينما يصل القاصر معها إلى منطقة لا تحد مناصاً من الاعتراف بأن وجودها أكثر دناءة ووضاعة من وجود الحيوان ولكنها مع ذلك نظيفة لا شيء

إلا لأنها لا تكذب على نفسها ولا على من حولها ، فهي قادرة ، ولا نقول غير ذلك
لا تضع قناعا على وجهها أو لا تسمى باسم غير اسمها الحقيقي ، ولا تتستر لواجهة
جميلة ، ولأنها صادقة فهي نظيفة ، لأن القذارة أن تضع قناعا يظهره بصورة
الحمل الوديع وأنت ذنب ، أو تتسمى باسم يحترمه الجميع بينما هي في الواقع
مومس . النظافة هي الحقيقة ليس أكثر ، وبهذا المعيار هي نظيفة ، ولكن القاص
لا يحدع بهذا لأنها حتى لو كانت نظيفة ، فهي - ولا شك - ستخسر نفسها بعد أن
يذوب وجودها شيئا فشيئا ، كما تدوب قطعة الثلج تحت أشعة الشمس المحرقة
وتنفجر باصباح غاضبة أنها أنظف قدرة ، أنظف من كل من حولها . (٧٢) .
(هي : لا يمني كلامك أبداً ، أنا قدرت حياتي . أنا مومس ولكي نظيفة ، فأنا
لا أقول أنا مدام فلان ، أو صديقة علان أو أرملة تلتان . أنا نظيفة أقوليا لك
وللجميع : أنا مومس ويقولني هذا على الملأ أصح أنظف منكم جميعا . فأنا
لا أكذب عليكم ولا على نفسي . أنتم الكدابون والكذب اخدش للشرف من النفاق
أنا المومس فعلاً ، وما أفعله مومسة ، ولكي نظيفة .

هر لا ياسيدني لا تخدعي نفسك فأنت بفخرين أنك الوحيدة التي لا تخدعين
نفسك . قولي أنا مومس وأن بيع الجسد أحقر شيء يرتكبه بشر . ولكي لا أعرف
لمادا أنا أفعله ولا تهربي حلف رداء العموميات قولي لنفسك أنك ستخسرين
نفسك وأنت بحاجة إلى من يعالجك أو يأخذ بيدك) .

ونصل إلى الدرجة التي لا تستطيع فيها الصبر حينما أظهر القاص لنا وحوذاً
عاريًا بدون تلك الأقنعة الكاذبة التي تحاول أن تحتفي ورائها ، وانفحرت عاضة
نقر . (٧٢) . (هي أنا نظيفة ... نظيفة ... بل أنا قادرة ... قدرة جداً ولكي أقولها ...

ها أنذا أصرخ بهاأنا نظيفة جدا لأنني قدرة جدا جداأنا أنظف قدرة أنظف منكم كلكم ، (بول شيت) عليكم جميعا) .

والمجتمع أو الحضارة التي يعيش فيها المجتمع هي التي شكلت الفرد على هذا النمط من التفكير وهي التي ألهمته هذا الإطار الضيق لينظر به إلى الوجود الإنساني الرحب الثري ، إن الإنسان كائن شره نهم ، سيطا الرغبة والتملك تلهبه فتشعل فيه نيران الشهوات ويؤجج الغرائز الحيوانية ، ويعلو صوت الحيوان ليطغى ويطمس صوت الإنسان ، وطالما أصبح حيوانا ، فالمكان أو المجتمع الذي يعيش فيه غابة ، ويسود قانون الغاب ، أن يأكل القوي الضعيف ، فلا قانون ولا قيم ولا أخلاق فكل تلك المسميات من مخلفات العصور المتأخرة القديمة ، ولا تصلح تلك المفاهيم إلا للمتأخرين أو في حصص التاريخ القديم للإنسان . أما في القرن العشرين وفي قمة الحضارة الغربية فاعتمادك في المقام الأول على مكرك ودهائك ونفاقك وسيشع كل شيء لقاء قضاء متعة أو رغبة من الرغبات الحيوانية ، (٦٨) .

(نبي . إنك أيها الأستاذ العالم تخاطبني وكأنك تخاطب العالم من فوق برج إيفل الشرف والصدق والإنسان المتحضر الراقى أين على سطح كرة أرضية مكونة من وحل وطين ماذا أفعل أنا التي ولدت في غابة لم أصنعها أنا ولكنها كائنة وموجودة أحافظ على بقائي وأحفر بالمأوى والطعام والمتعة وإن لم أجد أسرقها وإن لم أستطع أقتل وأغتصبها ! أنت تملك ترف أن تعيش شريفا ولكن غيرك حتى لو أراد لا يملك هذا الترف .

هر: أنت تكذبين على نفسك أنت في إصبعك خائفاً يعول عائلة بأكملها
في بلادي لثلاثة أعوام أنت لست جائعة لهذه الدرجة .

هي : لأن جوعكم هو أبسط أنواع الجوع جوع الحيوان إلى الطعام ولكن جوعي
هو جوع الإنسان إلى حياة الإنسان جوع الحياة بمتعة الحياة لمجرد البقاء هي
حيوانات متخلفة ، إنني جوعي للسفر والرحلة والحياة اللذيذة . الفرق أنكم
حيوانات جوعي بينما جوعي أنا وحوع غيري هنا هو جوع الإنسان . أبشع أنواع
الجوع لأنه ليس حوع معدات إنه جوع مراكز عليا وخيالات وأحلام جوع النوازع
العليا يا أستاذ .

هر : ومن أجل تلك النوازع العليا تنحطين وجسدك إلى ما هو أدنى من
مراتب الحيوان .

هي فليكن أني أغوص بالحيوان في لأمتع كل ما يجعل مني إنسانا .

هر : تفقدين بهذا الحيوان والإنسان معا . فالإنسان لا يرتفع فوق حيوان
هابط ، الإنسان يصبح إنسانا حين يشبع فيه الحيوان ويحترم فيه الحيوان
حيوانيته لكي يستطيع الإنسان فيه بعد هذا أن يفخر ويزهو وإنسانيته . إن الوحل
لا يصنع أساسا لناطحة سحاب مهما حفلت أدوارها العليا بالديكورات والتحف
والريئات) .

إنها تسعى سعيا لاستنفاد أحر قطرة من عصير الوجود ، تعيش بأقوى
مما تستطيع تحمل الحياة بكل عضلة في كيانها وكل نغمة في عروقتها . وقد يسرت
الحضارة المتقدمة لها سبل الاستمتاع بالحياة . ولكن متى ارتوى طالب متعة

الحياة ؟ إنه كشارب الماء الأجاج لا يزيد هذا الشرب إلا عطشا على عطش هذا الظما جعلها تنشد المتعة بأي ثمن ، وليس هناك من قيم أو معايير تصنع إفريزا لطريق المتعة ، فأبي جهة شاءت اتجهت حتى لو باعت نفسها من أجل تلك المتعة بل أن يبيع الجسد أو النفس يكون من أبخس الأثمان لتلك الصفقة . إنهم باعوا أنفسهم للشيطان ففتح لهم أبواب عوالم متخمة باللذة والشهوات والذي جعلهم سلس القيادة للشيطان تلك الفلسفة الزرائعية التي تقيس كل عمل بنتيجته وعائده النفعي ومرجعه المادي . نعم ، قد يصلح تطبيق هذا على المادة الصماء أما على الإنسان الذي قد يضحى بحياته من أجل قيمة أو من أجل مبدأ أو من أجل كلمة ذلك الإنسان الذي يعلم أن لا بقاء لإنسانية الإنسان بدون قيم تكون حاجزا أن تختلط حياته بحياة من هم دونه في الرقي والسمو ، وتلك ميزة وعيب لا نريد أن نغفلها حقها كما لا نريد أن نتجاوز عن عيبها .

أما الميزة فقد ارتقت بالستوى المادي للإنسان ، وسخرت له البر والبحر يفعل فيهما ما يشاء .

أما العيب فإن هذا التقدم والتحضرنه عن نفسه فتساها في غمرة الاستكشاف والبحث والتحليل والابتكار ، وقد قال القاص جملة تعتبر هي المحور الذي يدور حولها فكر الرواية . فحينما دخلت عليه في فندقه وبعد حوار بينهما أضحى الموقف هكذا (هو . بنصفه عار بدون جاكته وهي بنصفها الأسفل عار بدون بنطلون) ...

وكأنهما شجرتان هولاه الجذور الضاربة في أعماق التاريخ العريق وهي مثقلة بالثمار على أغصانها ولكن لا جذور هناك . فهي في حاجة إلى تلك الجذور وهو في حاجة إلى تلك الثمار . إلا أنه يرفض تلك الثمار لأنها لم تنبت في أرضه ، فهي غريبة عليه ولن يحدث هذا إلا حينما نأخذ التمار غداً ما من تلك الجذور التي أنبتتها روحانية الشرق ورسالاته وكتبه . تسري في شعاب الحدور على هيئة قيم ومعايير وبذلك تكتمل لشجرة الحضارة كل صفاتها الإنسانية . وحينئذ تؤتي أكلها لكل من شاء الأكل ، فالجذور متأصلة في الأرض . ضاربة في أعماق التاريخ القيمي للإنسان والأغصان خضراء منقولة بالثمار المتخمة بما استمدته من الجذور ، وبما أخذته من هواء وشمس الحضارة .

سيرة ذاتية

الاسم : محمود محمد محمود القلبي

عضو اتحاد الكتاب بالقاهرة - عضوية عاملة رقم ١٩٧٧

الهاتف : ٠٠٢٠٤٥٣٣٢٠٠٣٩

الفاكس : ٠٠٢٠١٠٦١٤١٤١٢٤

البريد الإلكتروني : elkellenymahmoud@yahoo.com

الأعمال المنشورة :

- ١- إنهم بدهسون : قصص قصيرة دار الشعب بالقاهرة - ١٩٨٢.
- ٢- الدجال والشيطان : رواية مركز معروف بالإسكندرية - ١٩٨٥.
- ٣- إحنون والكهنة : مسرحية الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة - ١٩٩٥.
- ٤- محبة الإمام أحمد بن حنبل : مسرحية الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٩٧.
- ٥- مريع الخراساني : مسرحية الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة ٢٠٠٢.
- ٦- غائب لا يعود : مسرحية الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة .
- ٧- الفكر الإسلامي ومسجدات العصر : كتاب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ٢٠٠٥ .
- ٨- عس حيانك سعيدا : كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار - ٢٠٠٥.

- ٩- -الساء ففدن عروهنر : كتاب مكتبة العلم والإيمان بالمنصورة ٢٠٠٦.
- ١٠- العرمة - ف رهاب عمر من الخطاب. كتاب دار العلم والإيمان بدسوق
٢٠٠٧.
- ١١- أمر الصحافة العربفة : كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار ٢٠٠٩.
- ١٢- شخصفة بوسى البى : كتاب مكتبة بستان المعرفة ٢٠١١ .
- ١٣- الإسكدرفة عناقفد العشق والغضب. روافة مكتبة بستان المعرفة ٢٠١١.
- ١٤- السرذ فى وجراد المفرفن كتاب مكتبة بستان المعرفة ٢٠١٢.
- ١٥- الماحوف عن الله كتاب دار العلم والإيمان بدسوق ٢٠١٣.
- ١٦- الحررفف من الحار روافة مكتبة بستان المعرفة ٢٠١٣.
- ١١- بلر راففا عرمة : مسرحة الفبة العامة لقصور الثقافة ٢٠١٠.
- ١٨- شخصفة المسفح كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار ٢٠١٤.
- ١٩- شخصفة البى محمد : كتاب دار العلم والإيمان بدسوق ٢٠١٤.

الجوانز :

- ١- جائرة الفالف المسرحة من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحة
محنة الإمام أهدد .
- ٢- جائرة الفالف المسرحة من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحة
إحنانون والكبنة .

٣- جائزة التأليف المسرحي من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية
مصرع الخراساني .

٤- جائزة الدراسات النقدية من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن دراسة
بعنوان (الذاتية والقيم الوجودية في أدب إبراهيم عبد القادر المازني) .

٥- جائزة الدراسات النقدية من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن دراسة
بعنوان (قيم ومعايير في أدب يوسف إدريس) .

٦- جائزة المقالة النقدية من المجلس الأعلى للثقافة عن دراسة على قصة
(الطريق) لنجيب محفوظ .

٧- جائزة من نادي أبنا بالملكة العربية السعودية عن مسرحية محنة الإمام
أحمد بن حنبل ١٤١٧هـ .

٨- جائزة من نادي القصة بالقاهرة عن رواية بعنوان (قوس قزح) ٢٠٠١ .

obeikandi.com